الحرب السنوسية – الفرنسية في الصحراء الكبرى (١٨٣٧- ١٩١٣)

أ.د. ظاهر محمد صكر الحسناوي
جامعة بغداد/ كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية

الملخص:

لماذا اخترنا هذا الموضع وقد كتب الكثيرون عن جهاد السنوسيين في ليبيا ؟ أجيب على ذلك بالقول إني اخترت هذا الموضوع للبحث فيه لأنه كتب الكثيرون عن جهاد السنوسيين في ليبيا ، ولكن لم يكتب الشيء الكثير عن جهاد السنوسيين في الجزائر أو في جنوب الصحراء الكبرى مثل مناطق مالي والنيجر وتشاد ومقاومتهم للغزو الفرنسي، وبناء على ذلك اخترناه موضوعا لهذا البحث . من المعروف إن الحركة السنوسية هي حركة ليبية فقط ، لكن الواقع يشير إلى أنها أول حركة إسلامية امتدت على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا تجسيدا لمبادئ الإسلام العالمية ، ولذلك انتشرت زواياها في الحجاز ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والسودان وتشاد والنيجر وكان لها أتباع أيضا في مناطق أخرى من العالم الإسلامي فوصلت إلى جنوب شرقي آسيا . كما إن قادة هذه الحركة وشيوخها بوصفها حركة إسلامية دينية كانوا من شعوب وأقطار إسلامية متعددة ومتنوعة ، فمنهم الليبي والجزائري والسوداني والمصري والموريتاني والتشادي والنيجيري والسنغالي والملايو والاندنوسي ،والعربي والبربري (الامازيغي) والزنجي الإفريقي والتركي أومن أصول مختلطة ، وهي فوق كل ذلك حصرت نشاطها بثلاثة أهداف رئيسة : الأول إصلاح العقيدة الإسلامية ، والثاني نشر الإسلام بين الوثنيين في إفريقيا ، والثالث مقاومة التغلغل الاستعماري الأوربي في إفريقيا ، ومن المعروف عنها أنها خاضت حروبا طاحنة ضد الاستعمارين الايطالي في ليبيا والبريطاني في مصر ، ولكن من غير الشائع أنها خاضت حرب ضروس ثالثة ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر وفي الصحراء الكبرى وجنوبها ، من هنا جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء عن بعض صفحات هذه الحرب المجهولة ، لماذا اصطدمت الحركة السنوسية بالاستعمار الفرنسي ؟ وما هي الإستراتيجية التي استخدمتها في هذه الحرب ؟ ولماذا نقلتها من شمال الصحراء الكبرى إلى جنوبها ؟ إن هذه الأسئلة وغيرها كانت موضع اهتمام هذه الدراسة والبحث عن إجابات لها ، وربما لم نقدم هنا الشيء الكثير عن هذه الحرب المنسية بسبب شحة ما توفر لدينا من مصادر ، ألا إننا نعتقد أن هذه الدراسة ما هي إلا عامل محفز للباحثين الآخرين كي يولوا الموضوع اهتماما اكبر .

الإطار الفكري والميداني للمقاومة السنوسية::

إنَّ الأساس الفكري أو العقائدي الذي بنت عليه الحركة السنوسية موقفها من الغزو الاستعماري الفرنسي لمناطق جنوب الصحراء ، كان يقوم على أساس مبدأ " الجهاد" في العقيدة الدينية الإسلامية ، ومن هذا المنطلق سنعالج أحداث هذه الحرب اعتمادا على هذا المبدأ بوصفه العامل الرئيس المحرك لأحداث الحرب السنوسية – الفرنسية ، أو كما أسمتها بعض المصادر ب"حرب الأنصار" أو " الحرب المنسية" ، على أساس أنها حربا دينية مقدسة ضد "الكفار" الغزاة

، كون الحركة السنوسية أساسا هي حركة دينية إصلاحية تزامن ظهورها مع السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر وتصاعد المقاومة الوطنية له بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري ، ألا انه من غير المؤكد أن تأسيسها كان يمثل رد فعل ضد هذا الاحتلال بالرغم من أنها اتخذت من الصحراء الكبرى ميدانا لجهادها ضد الاستعمار الفرنسي الذي كان يتغلغل فيها أما من البحر المتوسط من جهة الشمال عن طريق الجزائر أو من المحيط الأطلسي من جهة الغرب عبر موريتانيا والسنغال وساحل العاج ، فالصحراء الكبرى تمتد لمسافة ٣٢٠٠ ميل من المحيط الأطلسي إلى نهر النيل ، ولمسافة ١٤٠٠ ميل من البحر المتوسط إلى حوض الكونغو أي أن مساحتها تبلغ ٣,٥٠٠,٠٠٠ ميل مربع وتعادل مساحة الولايات المتحدة الأمريكية واقل قليلا من مساحة أوربا[١] ،لقد اختارت السنوسية هذه الصحراء لتكون الميدان الرئيس لنشاطها فقد أكد المستشرق الروسي بروشين قائلا : في الواقع كان نشاط الجمعية بين سكان الصحراء ، فمن جهة كان سكان الصحراء بحاجة إليها ، ومن جهة أخرى فان مؤسس الحركة توجه بالدعوة إليهم لأنهم كانوا اقل فسادا من سكان المدن ولذلك اعتمدت الحركة على القبائل وليس على سكان المدن ، فقد أنشئت الزوايا بأيدي القبائل والتكتلات القبيلة التي عدتها مؤسسات قبلية [١] ، كما إن هذه المساحة الشاسعة وقعت برمتها تحت النفوذ والسيطرة الفرنسية ، مما حدا بالحركة السنوسية إلى اتخاذ هذه الصحراء المترامية الأطراف ميدانا لنشاطها الديني أولا ولنشاطها الجهادي ضد التغلغل الأوربي لا سيما الفرنسي في هذا الجزء من العالم ثانيا ، فانتشرت الزوايا السنوسية فيها من الصحراء الغربية المصرية إلى موريتانيا والسنغال لتكون قواعد دينية وعسكرية تؤدي الحركة السنوسية من خلالها دورها الديني الإصلاحي ودورها الجهادي ضد الاستعمار الأوربي . يقول نقولا زيادة إن زعماء السنوسية اختاروا أماكن ذات قيمة تجارية وإدارية وحربية ، ومن هنا نرى إن هذه الزوايا قامت عند ملتقى الطرق ، وفي أماكن يسهل الدفاع عنها طبيعيا ، ويمكن منها الإشراف على رقعة من الأرض تجاورها ، وان تبعد الواحدة عن الأخرى مسافات قريبة لا تزيد عن ست ساعات في بعض المناطق ليسهل إرسال النجدات إليها والإمدادات عند الحاجة ، وأصبحت الزوايا محكمة الارتباط مع بعضها البعض من جهة ومع مركز القيادة والإدارة من جهة أخرى ، وقد عدها البعض أنها أصبحت إمبراطورية داخل الإمبراطورية العثمانية [٢].

أسس الحركة السنوسية بصفتها طريقة صوفية السيد محمد بن على السنوسي [٣] الذي يرجع نسبه إلى الحسن المثنى بن الإمام الحسن بن الإمام على وفاطمة الزهراء (ع) [٤]، ولد في ضاحية تابعة لبلدة مستغانم[٥] في الجزائر في ٢٢ كانون الأول ١٧٨٨ ونشأ في بيت علم ودين ،ثم واصل محمد بن علي تعليمه هناك على أيدي علماء عصره حتى عام ١٨١٤ إذ سافر إلى فاس ودرس في جامع القرويين حيث برز نبوغه وظهرت نزعته الإصلاحية ، وانصب اهتمامه على ما تعانيه الأمة

الإسلامية والبحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى تدهورها وتنبه إلى مخاطر الأطماع الأوربية في بلاد المسلمين وقام برحلة إلى صحراء الجزائر ليتعرف على أحوال المسلمين ويطلع على نشاط الزوايا الدينية حيث امضي عامين هناك[٦]، ثم عاد إلى بلدته مستغانم وتزوج من إحدى بنات عمومته سنة١٨٢٢ ، وفي السنة التالية قرر القيام برحلة إلى مكة وأداء فريضة الحج فوصل مصر سنة ١٨٢٤ ودخل الأزهر ، ثم قصد الحجاز في العام التالي وهناك درس على أيدي اكبر علماء مكة حيث امضي فيها مدة طويلة وانشأ أول زاوية فيها هي زاوية أبي قبيس[٧] سنة ١٨٣٧ وأعقبها بإنشاء عدد آخر من الزوايا في الجزيرة العربية[٨]، وخلال هذه المدة اجتمع حوله عدد كبير من المريدين وطلاب العلم ،فقد كان مالكي المذهب إلا انه غير مقيد بالتقليد الأعمى ، وكان يبغض تعصب المتزمتين وسكون الجامدين وكان حربا على الجمود والتواكل والتعصب والتزمت ، وكان يدعو صراحة إلى نبذ الخلافات المذهبية فهو ثورة جامحة على الجهل وقوة صارمة لنصرة العلم والدين .وهكذا عد المؤرخون تأسيس زاوية أبي قبيس في الحجاز سنة ١٨٣٧ هي البداية الحقيقية لتأسيس الحركة السنوسية[٩] .

عاد إلى بلاده الجزائر سنة ١٨٤٠ ، كانت فرنسا تعد العدة للقبض عليه ، لذلك قفل راجعا إلى ليبيا ، فاستقبله أهالي برقة عام ١٨٤١ وبني أول زاوية في الجبل الأخضر هي زاوية البيضاء في سنة ١٨٤٣ ، ثم أخذت الحركة السنوسية بالنمو والتوسع في محيطها الإفريقي شرقا وغربا وشمالا وجنوبا[١٠] ، وكان تأسيس هذه الزوايا وانتشارها يشكل البداية التي انطلق منها محمد علي السنوسي لتنفيذ مشروعه الإسلامي الإصلاحي الواسع ، متخذا الدعوة السلمية للإسلام منهجا لنشر الإسلام في إفريقيا ونشر تعاليمه من خلال الزوايا والشيوخ والدعاة .

في عام ١٨٤٤ تزوج محمد بن علي السنوسي زوجته الثالثة في برقة والتي أنجبت له ولديه محمد المهدي ومحمد الشريف ، ثم غادر إلى الحجاز مرة أخرى عام ١٨٤٦ واستغرقت رحلته هذه المرة ثماني سنوات عاد بعدها إلى برقة سنة ١٨٥٤ ، وبعد سنتين نقل مقر إقامته إلى الجغبوب[١١] واتخذها مقرا لحركته والتي سرعان ما حولها إلى مدينة عامرة ومركزا لطلاب العلم ، ومن هناك بدأت الحركة بالانتشار في الصحراء الليبية حتى انظم سلطان وداي إلى الحركة واكتسبت بذلك قوة ونفوذا في السودان الغربي ، ولم يطل به المقام طويلا في الجغبوب حيث توفي في ٧ أيلول ١٨٥٩ .[١٢]

لقد نجحت السنوسية في إقامة ٢٢ زاوية في فزان تمتد من الجغبوب إلى غات[١٣] ومن غدامس[١٤] إلى الكفرة[١٥] ومن أهمها سنوان وغدامس ومزدة ، ولهذه الزوايا أهمية كبيرة لقربها من الجزائر إذ تحولت إلى ملجأ آمن للثوار الجزائريين ضد الإستعمار الفرنسي ، ثم تأتي بعدها زوايا مرزق وزلة وسوكنة وواو وغيرها ، وكان لإنتشار الطريقة القادرية في تونس قد ساعد على انتشار

الزوايا السنوسية هناك ، حيث انخرطت الزوايا القادرية بالسنوسية فنشأت خمس زوايا في تونس هي منزل خير ، دويرات ، زاوية الحارث ، كريز، وزاوية العرب ، وفي الجزائر أسس السنوسيون خمس زوايا في مستغانم ومازونة وزاوية سيدي احمد بن الناصر وزاوية مجهار تحتاني التي أسسها سنة ١٨٧٤ محمد بن العربي بن بو حفص الذي اشتهر باسم بوعمامة ، وقد ساعد على إنتشارها وجود زوايا الطريقة التيجانية ، أما في المغرب فقد تأسست ثلاث زوايا في طنجة وتطوان وفاس وقد ساعد على انتشارها هناك وجود زوايا الطريقة الدرقاوية[١٦]. ونستشف من ذلك إن الطرق الصوفية المنتشرة في بلدان شمال إفريقيا لم تتحرج من تقبل الحركة السنوسية ودعمها والسماح لها بالإنتشار في مناطق تواجدها وهذه من مزايا السنوسية التي استطاعت أن تستقطب معظم الطرق الصوفية إلى جانبها.

ولكي نفهم طبيعة الموقف السنوسي من التغلغل الفرنسي في الجزائر والسودان الغربي جنوب الصحراء ، لابد لنا من إلقاء نظرة سريعة على نشاط الحركة السنوسية وزواياها في تلك الأرجاء التي شملت مواطن القبائل المسلمة والوثنية ، فوصلت الدعوة السنوسية إلى قبائل التبو[١٧] والطوارق[١٨] في المناطق الممتدة جنوبا إلى بحيرة تشاد ، ثم القبائل الوثنية الممتدة من حدود مراكش الجنوبية إلى نهر النيجر ثم إلى نهر السنغال غربا ، فقد أنشأ السنوسيون في هذا الجزء من القارة الأفريقية عددا من الزوايا في توات وأنسالة التي تمتد بلاد الطوارق إلى جنوبها الشرقي ، ثم تأتي بعدها قبائل جرارة[١٩] وأولاد الحاج[٢٠] المسلمة ، وقد أسس زاوية أنسالة الشيخ احمد التواتي المقرب من الإمام محمد بن علي السنوسي ، وكان يعده الفرنسيون ألد أعدائهم في تلك الجهات ، وانتشرت السنوسية بشكل واسع في بلاد التبو والطوارق واعتنق الإسلام كثيرون من الوثنيين بفضل الزوايا السنوسية التي فتحت أبوابها للزنوج من الرجال والنساء على حد سواء ، أما في جهات تشاد وما جوارها فقد أثرت السنوسية في قبائل الآير[٢١] والتبو وغيرها ، وقد إتخذ عامل السنوسية الشيخ أسود من زاوية نجورمة مقرا له منذ عام ١٨٧١، وكذلك تأثرت بها قبائل برقو[٢٢]وأولاد سليمان[٢٣] وكانم[٢٤]على بحيرة تشاد ، ثم قبائل النيري توغي أو كاوار وزاويتها في شميدرو[٢٥] ، التي زارها الرحالة ناختغال عام ١٨٧٠ بصحبة الحاج محمد أبو عائشة قائممقام ورفلة ثم غدامس أي ممثلا للوالي العثماني علي رضا في طرابلس فكان كما يقول ناختيغال لاحول له ولا قوة أمام نفوذ مقدم الزاوية السنوسية الذي فرض إحترامه وسلطانه على جميع الأهالي في تلك الجهات ، ومن واحة كاوار أخذت السنوسية تمد نفوذها إلى بلاد تو التي تسكنها قبائل التيدا[٢٦]، وهي أحد فروع التبو وثبتت السنوسية أقدامها هناك وأنشأت فيها زاوية برداي عام ١٨٧٢ وتقع في جبال تيبستي ،وأصبح ملكها أرامي خاضعا لتأثير مقدم هذه الزاوية[٢٧].

واستطاع محمد بن علي السنوسي أن يمد نفوذ حركته إلى سلطنة وداي[٢٨] ، وتدخل خليفته محمد المهدي في الصراع على السلطة الذي نشب عام ١٨٧٦ بين المتنازعين على وراثة العرش لصالح السلطان يوسف الذي أصبح من أشد الموالين للسنوسية ، التي تمكنت من تحويل قبائل البائيلي الوثنية التي تستوطن أراضي مملكة انيدي في إقليم تيبستي شمال شرق وداي إلى الإسلام عام ١٨٧٢، وصار ملكها يرسل سنويا عددا من شبابها إلى الجغبوب للدراسة في معهدها ، ثم ما لبثت السنوسية إن إنتشرت بين قبائل البائيلي الشمالية فتأسست فيها زاويتا سيدي عبد الرب وسيدي السنوسي ، كما إنتشرت السنوسية في جهات برنو ثم في النيجر حول تمبكتو[٢٩] ، ثم وصلت السنوسية إلى كانم التي كانت محل نزاع بين سلطان وداي وسلطان برنو حتى عام ١٨٤٥ حيث هاجرت من فزان قبيلة أولاد سليمان وأقاموا بها ، وأخضعوا ماحولها من أقوام الكانمبو والتبو والبائيلي ونشروا الإسلام بينهم ولذلك انتشرت السنوسية هناك بكل سهولة [٣٠]. والحقيقة لم تكن مهمة هذه الزوايا دينية خالصة ولا عسكرية خالصة وإنما كانت مهمتها دينية وعسكرية في آن معا.

كان من أبرز النتائج التي ترتبت على الإنتشار الواسع للحركة السنوسية في شمال الصحراء الكبرى وجنوبها هو الإصطدام عاجلا أم آجلا مع الفرنسيين ، ذلك إن مناطق إنتشار السنوسية هي ذاتها مناطق نفوذ الإستعمار الفرنسي ، وبالتالي لا الفرنسيون يقبلون بالنشاط الديني الإسلامي الرافض للهيمنة الأوربية المسيحية على المناطق الإسلامية ، ولا السنوسيون يقبلون بالتغلغل الإستعماري الفرنسي في بلدانهم والسيطرة عليها . أما النتيجة الثانية التي ترتبت على ذلك هو رغبة البعثات التبشيرية الأوربية بالعمل بين القبائل الأفريقية ونشر المسيحية بينها وفي الوقت نفسه كانت السنوسية تعمل بكل جد وإصرار على منع تلك البعثات من العمل في مناطق نفوذها وإقفالها لصالح نشر الإسلام بين تلك القبائل، وبما أن تلك البعثات التبشيرية كانت مدعومة من الدول الاستعمارية لاسيما فرنسا فان الصدام مع السنوسية واقع لا محالة.

السنوسية حركة جهادية :

استنبطت الحركة السنوسية إستراتيجيتها لمقاومة الغزو الإستعماري الفرنسي من إستراتيجية المسلمين الأوائل في عصر الراشدين في الفتوحات ونشر الدعوة الإسلامية والتي قامت بالأساس على عنصر " القبيلة" بوصفها وحدة قتالية في تلك الفتوحات ، ألا أن السنوسيين زادوا عليها عنصرا جديدا هو " الزاوية" بوصفها وحدة قيادية وإدارية وتموينية وضبطية للقبيلة ،وقد استخدم السنوسيون أساليب قتالية متعددة مثل الغارات والكمائن والدفاع الموضعي والهجمات المباغتة .وفي المراحل الأخيرة من الحرب استخدم السنوسيون أسلوب الأدوار أو المعسكرات الخاصة بالقبائل وسيظهر ذلك من خلال سرد أحداث هذه الحرب .

فعندما احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ ، كان محمد بن علي السنوسي مقيما في مدينة أبو سعده الجزائرية ، فغادرها متوجها إلى طرابلس ثم مصر فالحجاز[٣١] ، وكانت الجزائر ومحاولة تحريرها من الإستعمار الفرنسي تشكل همه الأول ، فلطالما انضم إليه إعلام وشيوخ من الجزائر أصبحوا قادة ومعلمين في الزوايا السنوسية ، وطالما بعث بشيوخ الحركة وعلمائها إلى الجزائر في مهمات خاصة لحث الناس على المقاومة والإنضمام إلى المجاهدين ، ومن هؤلاء الشيوخ والقادة الجزائريين الذين انضموا إليه وكانوا من أوائل قادة الحركة ودعاتها هم: محمد بن عبد الله التواتي وكان مقربا جدا منه وهو من توات في صحراء الجزائر وطالما كلفه الإمام محمد علي في مهام تخص الحركة في الحجاز واليمن وليبيا ،وكذلك احمد أبو القاسم التواتي وهو من رفاق مؤسس الحركة الأوائل وتولى مشيخة عدد من الزوايا مثل سيوه والزيتون وزوايا فزان وكان ينوب عن الإمام محمد علي في تفتيش الزوايا والوقوف على أحوالها ، وكان الشيخ محمد الصادق من أكثر قادة الحركة الذين كلفهم بمهام خاصة إلى الجزائر مرات متعددة تتعلق بتحشيد الثوار ودعم الثورة ضد الاحتلال الفرنسي وإشعالها إذا ماخبت ، وقد تولى مشيخة زاوية الجريد في تونس ليكون همزة وصل بين الزوايا السنوسية والجزائر ، وكان من قادة الحركة الشيخ محمد بن مصطفى حامد المدني وهو من تلمسان تولى مشيخة تازربو في أقصى الجنوب الليبي على طريق القوافل الممتدة إلى غرب إفريقيا ، ومن مدينة بسكرة الجزائرية إنضم إلى الحركة السنوسية الشيخ محمد حسن البسكري وكان من أتباع الإمام الأوائل وبمثابة الإبن للإمام السنوسي وشغل منصب أمانة السر للإمام الذي تزوج شقيقته فاطمة البسكرية ، وإنضم إليه أيضا الشيخ احمد القسطيني وكان من أتباعه الأوائل ، وكذلك المختار بن عمور وهو من أشراف الجزائر وتتلمذ على يدي الإمام محمد بن علي وتولى إدارة زاوية قفنطة، كما أوفد الإمام السنوسي الشيخ الفضيل أبو رخيص الكزه احد زعماء قبائل برقة بمهام متعددة إلى السودان الغربي والحجاز والجزائر ، وفضلا عن هؤلاء كان هناك عددا آخرا من الشيوخ من المغرب وتونس والسودان وليبيا كانوا يشرفون على الزوايا أو يقومون بالتدريس في معهد الجغبوب الديني أو يقومون بمهام أخرى[٣٢].

لقد أدى هؤلاء أدوارا مختلفة في دعم ومساندة الثوار الجزائريين في جهادهم ضد الفرنسيين. ويقول المؤرخ الليبي محمد الطيب الأشهب بهذا الصدد أن هناك قضية كانت تحز في نفس محمد بن علي السنوسي وتشغل الكثير من تفكيره " تلك هي الإحتلال الفرنسي لبلاده الأولى ومسقط رأسه الجزائر ، فكان يبذل جهودا كبيرة لتقوية الثورة هناك ومدها بالأموال والرجال ما إستطاع إلى ذلك سبيلا ، وقد أوفد في فترات متفاوتة عددا من تلاميذه النجباء أمثال الشيخ محمد بن الصادق الطائفي والشيخ محمد بن الشفيع والشيخ عمر الفضيل المعروف بابي حواء والشيخ الفضيل أبو خريص الكزه"[٣٣]. وحاول محمد بن علي السنوسي الالتحاق بالثوار سنة ١٨٤٠ – كما أشرنا

سابقا– فوصل إلى طرابلس قادما من الحجاز في طريقه للجزائر ، وكان يحمل معه بعض المساعدات للثوار ، ثم واصل سيره إلى زوارة حيث مكث فيها أياما بانتظار بعض ما سيلحق به في رحلته ، ومنها توجه إلى قابس وقد وصلت أخباره إلى مسامع السلطات الفرنسية في الجزائر ، فبثت العيون لمراقبته على إمتداد حدود الجزائر مع تونس وليبيا ، فعلم بالأمر وقرر ألا يواصل شخصيا مسيره نحو الجزائر وأناب عنه محمد بن الصادق أحد تلاميذه وحمله بالأموال والأسلحة لتوصيلها إلى الثوار الجزائريين اللذين كان يقودهم الأمير عبد القادر الجزائري ، وعاد السنوسي إلى طرابلس في أوائل عام ١٨٤١ ثم إلى برقة حيث أقام فيها أول زاوية لحركته[٣٤].

كانت السنوسية ترى إن تحرير العالم الإسلامي من السيطرة الإستعمارية يجب أن يسبقه إنعاش روحي ومعنوي عميق لشعوبه ، ولتحقيق هذه الغاية يتعين تحسين أحوال وأخلاق أتباع الحركة ، وبذل الجهود لرفع مستواهم المادي بتشجيع وسائل زراعتهم للواحات وحفر آبار جديدة وبناء مساكن لإيوائهم على طول خطوط القوافل وتشجيع التجارة وتنمية حركتها ، وقد حققت السنوسية جزءا كبيرا من إستراتيجيتها هذه في صحراء ليبيا وصحراء مصر الغربية وعلى إمتداد الطريق المؤدية إلى السودان الغربي (تشاد) ، من خلال حفر الآبار وإصلاح الصهاريج التي كانت مدمرة ومطمورة ، ففي سنة ١٨٥٣ قام محمد علي السنوسي بحملة كبيرة لإصلاح الآبار الواقعة على طريق العبد في جنوب ساحل برقة ، وكذلك الآبار الواقعة في الصحراء بين العزيات والجغبوب ومنها بئر حكيم[٣٥] .

والجدير بالذكر أن السنوسية أنشأت عددا من الزوايا على الطرق المؤدية إلى الجزائر لتكون قواعد لإيصال الإمدادات للمجاهدين الجزائريين مثل زاوية الجريد في تونس التي أسسها محمد بن علي السنوسي ، بينما أسس خليفته عددا آخرا من الزوايا القريبة من الحدود الجزائرية مثل زاوية غدامس وزاوية غات في فزان وزاوية مستغانم في الجزائر وكان شيخها احمد بن تكوك وتولى أولاده وأحفاده إدارتها من بعده ، وذكرت المصادر أن نسب آل تكوك يرجع إلى الأشراف العلويين أيضا ، فأخذ مشعل السنوسية مشايخ آل تكوك بفتح الزاوية على نهج الطريقة السنوسية ومقرها الأصلي في بوقيرات بأولاد شافع وهي زاوية العرعار ولها بمستغانم ملحقا بحي المطمر قرب الولي سيدي عبد الله جد المشايخ وكانت زواياهم مؤسسات تربوية تعليمية و مدارس للطلبة [٣٦] وهي فيما عدا ذلك حصون دفاعية وقواعد عسكرية .

إستراتجية الثورات القبلية في الجزائر :

لقد أولى محمد بن علي السنوسي الإحتلال الفرنسي لبلاده الجزائر إهتمامه الأول في خطط المقاومة الوطنية ضد الإستعمار الغربي ، فعمل على إشعال الثورة فيها وكان يحث ويوجه أتباعه على القيام بها ، وهذا ما أثبته الرحالة الفرنسي دوفرييه مؤلف كتاب (سيدي محمد بن علي

السنوسي) إذ قال : إن السنوسية هي المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر ، وإتهم السنوسية بأنها اليد المدبرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الإفريقي وفي السنغال ، وإن فرنسا وحدها هي التي تجابه السنوسية وتلاقي منها الصعوبات الكثيرة كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر سنة ١٨٤٨ و ١٨٦١ ، وثورة محمد بن تكوك في منطقة الظهرة بالجزائر عام ١٨٥١ ، وما قام به عزت باشا في وجه قناصل فرنسا في طرابلس المسيو بليزيه والمسيو بوتا سنة ١٨٥٣ و١٨٦٠ وثورة الصادق في جبال الأوراس سنة ١٨٧٩ ، وكانت للسنوسية بكل تأكيد اليد الكبرى في ثورات أولاد سيدي الشيخ سنة ١٨٧٩ و ١٨٨١ ، كما كان لها اليد في حبك الدسائس التي وقعت سنة ١٨٨٢ في حاشية باي تونس ، وفي المظاهرات المعادية لفرنسا التي قامت في طرابلس سنة ١٨٧٩ و١٨٨٣ ،وكذلك في طرد نائب قنصل فرنسا في بنغازي المسيو ريكاردو، ثم استطرد الرحالة الفرنسي قائلا : " إن الحقيقية التي يجب أن لا نغفل عنها هي أن الطريقة السنوسية اخطر أعداء نفوذنا (نحن الفرنسيين) في شمال إفريقيا وفي السنغال ، وأنها العقبة الكأداء في سبيل توسعنا السياسي والأقتصادي داخل إفريقيا، وهي في الوقت نفسه عائق في طريق أهدافنا في القارة الواقعة شمالي خط الإستواء " ، ثم واصل الرحالة الفرنسي حديثه قائلا :" لقد بلغ نظام التحري والأستقصاء للأخبار عند السنوسية من حيث الدقة درجة الكمال ، ففي ١٨٧٨ و١٨٨١ أبلغ السنوسي وكيله في طرابلس عن معلومات دقيقة بالثورات في جبال الأوراس وأولاد سيدي الشيخ، قبل أن تصل أخبار تلك الثورات إلى مدينة الجزائر نفسها ، في حين أن طرابلس تبعد عن الجزائر حوالي ٧٠٠ كيلومتر وحوالي ١٢٠٠ كيلو متر من مواقع أولاد سيدي الشيخ " ، بل أن دوفرييه ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قال إن السنوسية هي القوة المحركة لجميع الحوادث التي وقعت في البلاد الإسلامية ، وذلك للحيلولة دون انتشار النفوذ الأوربي ، مثل ثورة المهدي بالسودان وثورات الصومال وتونس والجزائر والسنغال وإفريقيا[٣٧].إن ما ذهب إليه الرحالة الفرنسي لايخلو من مصداقية ، حيث كشفت الحقائق التاريخية عن وجود صلات خفية بين السنوسية وبعض تلك الثورات .

ثم ساند السنوسيون ثورة محمد بن عبد الله وهو من أولاد سيدي احمد بن يوسف وهم فرع من قبيلة غسول[٣٨] في تيموشيت بالجزائر ، إنتقل إلى تلمسان سنة ١٨٤٠ ، حيث إشتغل معلما للقرآن في زاوية أولاد سيدي يعقوب ، وعندما إحتل الفرنسيون هذه المدينة سنة ١٨٤١ حمل لواء المقاومة ضدهم ، ولما إكتشفوا أمره سنة ١٨٤٤ غادر تلمسان إلى الإسكندرية ومنها إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وهناك إلتقى بمحمد بن علي السنوسي الذي إتفق معه على العودة للجزائر وإعلان الثورة فيها بدعم وإسناد من السنوسي ، إستغل محمد اندلاع الثورة في فرنسا سنة ١٨٤٨ فأخذ يحشد

القبائل والأنصار وخلايا المقاومة المتفرقة وإستطاع أن يحتل ورقلة ويجعلها مقرا لثورته ضد الفرنسيين ، ثم إنضم إلية بن جلاب سلطان تفريت كما إنضم إليه سكان متليلي ، فحشد الجنرال راندون ثلاثة فرق كبيرة للقضاء عليه [٣٩]. وتذكر بعض المصادر أنه غادر بعدها توقرت وإتجه إلى جبل عمور لجمع المزيد من الأنصار. وللقضاء على حركته قام الجنرال راندون بتجنيد ٣ فرق كبيرة لمحاربته، فاشتبك معه في معركة عين الرق قتل من الفرنسيين حوالي ٢٠٠ رجل فإستقبل في الأغواط بعد إن فشل في دخولها من قبل.أظهر بطولة فائقة في الدفاع عن مدينة الأغواط وقصورها ، إلى أن سقطت يوم ٤ كانون الثاني١٨٥٢ فتوقف نشاط محمد بن عبد الله إلى غاية شباط١٨٥٣ حين حاول إسترجاع الأغواط ألا أنه فشل بعد اشتباكات ومعارك في بريزينة والرويسا [٤٠].

بعد وفاة محمد بن علي تراجع إهتمام الحركة السنوسية بالمقاومة الجزائرية في الجزء الشمالي منها ، وأولت كل تركيزها على مقاومة الغزو الفرنسي في السودان الغربي جنوب الصحراء .والسبب في ذلك كما قال هنري دي كاستري بأن زعيم السنوسية محمد المهدي "رأى أنه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنساوية في الجزائر مقاومة صريحة فعدل عن فتح الجزائر إلى فتح أرض غيرها للإسلام"[٤١]. ألا أن السنوسية إستمرت من خلال زواياها بالجزائر في دعم وتشجيع حركات المقاومة الوطنية ضد الإستعمار الفرنسي .

وقف السنوسيون إلى جانب ثورة الشيخ بوعمامة الذي ولد بقصر الحمام الفوقاني في منطقة فقيق ما بين ١٨٣٨ و ١٨٤٠، وفي هذه الفترة الصعبة من تاريخ الجزائر أجبرت عائلته على الهجرة ومغادرة الأرض والإستقرار في الأراضي المغربية ، فمن المعلوم أن معاهدة لالة مغنية الموقعة بين فرنسا والمغرب في ١٨آذار ١٨٤٥م قسمت قبيلة أولاد سيدي الشيخ إلى فرقتين: "الشراقة" أو الشرقيين وأصبحوا بموجب الإتفاقية جزائريين. و"الغرابة" أو الغربيين وأصبحوا على وفق هذه المعاهدة مغاربة ، وتعلم العلوم الشرعية في الزوايا على يد مجموعة من الشيوخ ، أما تربيته الصوفية فقد تلقاها عن مقدم زاوية سيدي الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن وهو الذي أشار عليه بالذهاب إلى مغرار التحتاني جنوب ولاية النعامة بالجزائر، ينتمي الشيخ بوعمامة عقائديا إلى الطريقة الطيبية التي إنتقلت من المغرب الأقصى، وعن طريق الحدود إلى الغرب الجزائري حيث إنتشرت إنتشارا واسعا،ألا أن هذا لم يمنعه من التأثر بالطريقة السنوسية نظراً للقرابة التي كانت بينها وبين أولاد سيدي الشيخ،استطاع الشيخ بوعمامة تأسيس زاوية جديدة خاصة به في منطقة المغرار التحتاني مما زاد في شعبيته وكثر أتباعه ومريديه في العديد من المناطق الصحراوية ،ودامت مقاومة الشيخ بوعمامة أكثر من ثلاثة وعشرين عاما، حتى أطلق عليه

لقب الأمير عبد القادر الثاني ، وقد إشتهر بقدرته الفائقة على مراوغة قوات الإحتلال التي لم تنجح في القضاء عليه رغم محاولاتها سياسيا وعسكريا . لقد تأثر الشيخ بوعمامة بفكرة الجهاد ضد الصليبيين الغزاة المحتلين لتغيير أوضاع المسلمين وطرد المستعمرين ، وهي الأفكار التي وصلت إلى المغرب العربي كذلك عن طريق الوافدين من المشرق العربي، يضاف إلى هذا كله دور دعاة الطريقة السنوسية في إثارة سكان المناطق الصحراوية ضد تغلغل الإستعمار ومواجهته وقد كان لهذا الدور مفعوله على نفسية الشيخ بوعمامة ،وهي عوامل كافية ليقوم الشيخ بوعمامة بحركته الجهادية ضد الإستعمار الفرنسي في منطقته ، قاد الثورة منذ عام ١٨٨١ حتى وفاته عام ١٩٠٨[٤٢].

إختلف الباحثون بشأن علاقتة بالطريقة السنوسية فمنهم من أيد ومنهم من أنكر ، ودار نقاش بينهم على موقع منتدى سيدي الشيخ الألكتروني ، ومما ذكر بهذا الشأن أن طريقة الشيخ بوعمامة هي طريقة أجداده أولاد سيدي الشيخ التي تستمد طقوسها من الطريقة الطيبية ، ذات الإنتشار الواسع في المغرب الأقصى والغرب ألوهراني ، ألا أن الضابط الفرنسي دوفرييه إدعى أن طريقة بوعمامة الصوفية هي الطريقة السنوسية التي هي طريقة عائلة الكنتي في تمبكتو وكل غرب إفريقيا والتي ترتبط بصلة القرابة مع عائلة أولاد سيدي الشيخ ، ويظهر أن للسنوسية تأثير كبير عليه[٤٣]، وذكر بعضهم إن نحو عشرة طرق منتشرة في تونس والجزائر تأثر أتباعها بالسنوسية وخضعوا لتعاليمها لمرونتها وسهولة شروطها ، وقيل إن التيجانية والشاذلية والمدينية والدرقاوية قد احتوتها جميعها الطريقة السنوسية ، وأكد لويس فينون إن أتباع السنوسية على إستعداد تام لتنفيذ الإغتيالات والقيام بالثورات وان بعضهم قد شارك في ثورة بو عمامة ، وكان في سنة ١٨٩٧ للسنوسية نحو ٤٨٠٠ تابع و ٣٠ مقدما تابعين لزاوية تكوك في مستغانم بالجزائر[٤٤].

لقد إعتمد السنوسيون إستراتيجية تحشيد القبائل والثورات القبلية ضد الإستعمار الفرنسي في الجزء الشمالي من الجزائر ، ولكنهم أدركوا إن القبائل لا يمكنها أن تحقق نصرا حاسما على الجيوش الفرنسية بسبب اختلال ميزان القوى العسكرية وامتلاك الفرنسيين للأسلحة والأعتدة الحديثة من جهة ، ومن جهة أخرى كثرة تقلب القبائل وتراجعها أو تحملها لعبئ الحرب دون غيرها من القبائل مما يثقل عليها ويجعلها هدفا سهلا للجيش الفرنسي ، فضلا عن حدوث خيانات ووشايات من أفراد بعض القبائل ضد بعض قيادات المقاومة ورجالها مما مكن الفرنسيين من البطش بهم ، وهذا ما دفع السنوسيين إلى التفكير بتغيير إستراتيجية الجهاد والمقاومة وتحويلها من طابع الهجوم إلى إستراتيجية الدفاع ببناء ونشر الزوايا السنوسية في مناطق كثيرة جنوب الصحراء لتتولى التصدي للتغلغل الفرنسي ومنعه من السيطرة على المزيد من الأراضي أولا، والإنتقال بالمقاومة من الشمال

إلى مناطق الصحراء لإبعادها عن السواحل حيث توجد خطوط إمداد القوات الفرنسية عن طريق البحر ، ثم لمواجهة الزحف الفرنسي الذي أخذ بالتمدد والتوسع من مناطق غربي القارة إلى مناطقها الوسطى .

الإستراتيجية الدفاعية للسنوسية في حرب الأنصار:

غيرت الحركة السنوسية إتجاهها من الشمال الإفريقي إلى وسط الصحراء الكبرى وجنوبها في عهد محمد المهدي الإبن الأكبر لمؤسس الحركة السنوسية محمد بن علي الذي ولد المهدي في البيضاء بالجبل الأخضرعام ١٨٤٤ ، تلقى مع شقيقه الأصغر محمد الشريف تعليما دينيا هناك ثم أرسله أبوه سنة ١٨٥٣ إلى زاوية أبي قبيس في مكة ليتعلم على أيدي كبار شيوخ السنوسية هناك ، وفي عام ١٨٥٧ عاد إلى الجغبوب ليواصل تعليمه في معهدها الديني وعندما توفي والده سنة ١٨٥٩ ، بايعه السنوسيون لتولي قيادة الحركة السنوسية ، فتفرغ لإدارة شؤونها وتوسيع رقعتها إلى أقاصي إفريقيا ، واهتم بتطوير عاصمته الجغبوب، واستمرت قيادته للحركة أربعين عاما ، وتضاعف عدد الزوايا إلى أكثر من أربعة أضعاف ما كانت عليه في عهد والده ، ولإدارة تلك الشبكة الواسعة من الزوايا انشأ المهدي شبكة واسعة من المواصلات وطرق القوافل فازدهرت تلك الزوايا وتحولت إلى مراكز تجارية وزراعية ، ووفر لطرق القوافل الأمن والحماية فكثر سالكيها من مارة وتجار وحجاج [٤٥] ، وفي سنة ١٨٦٩ قام الشيخ محمد بن الشفيع بحفر بئر جديدة جنوب الكفرة في طريق السودان الغربي بأمر من الإمام محمد المهدي السنوسي الذي أطلق عليها اسم بشرى ، كما أمر بحفر بئر أخرى بعدها اسماها السارة[٤٦].وبذلك إستطاع السنوسيون من تأمين المياه لحملاتهم وقواعدهم العسكرية على امتداد الطريق الموصل إلى تشاد والنيجر وغرب إفريقيا.

ومنذ وقت مبكر عزم المهدي على مد نفوذه إلى أبعد نقطة في السنغال على المحيط الأطلسي[٤٧] ، وقد نوه الرحالة الألماني غيرهارد رولفس إلى ذلك بالقول :" أثناء وجودنا في الكفرة سنة ١٨٧٩ ، وصل حجاج من منطقة السنغال الفرنسية ولم يكن هدفهم كالعادة مكة بل الجغبوب "[٤٨] ويبدو أن هؤلاء السنغاليين كانوا يرومون الدراسة في معهد الجغبوب الديني . وهذا مؤشر مهم على أن الحركة السنوسية كانت على إطلاع تام بالتغلغل الاستعماري الفرنسي في غرب القارة الإفريقية .

كانت الحركة السنوسية تفتح المدارس وتبني المساجد والمراكز الإصلاحية وتشتري العبيد ثم تقوم بتعليمهم مبادئ الإسلام وإعتاقهم وإرسالهم بعد ذلك إلى أوطانهم كي يدعون أقوامهم إلى الإسلام ،الأمر الذي جعل الدول الأوربية تشعر بخطر الحركة السنوسية ، لاسيما بعد إن رأت قبائل وثنية مثل التبو والبرقو تدخل في الإسلام ، كما نشطت الحركة السنوسية في تعبئة أتباعها إستعدادا للجهاد ونظمت صفوفها وحرص محمد المهدي على تدريب السنوسيين على الأسلحة ، وأقام

علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية في وداي وبرقو وكانم من أجل نشر الإسلام ومواجهة الخطر الفرنسي الداهم ، كان الليبيون المتواجدون في تشاد يخشون من أن يقضي مجيء القوات الفرنسية (النصرانية) على ما بناه المسلمون في هذه المناطق البعيدة ، فالدعوة السنوسية كان لها نفوذ إسلامي كبير خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر في برقو Borkou وأنيدي Ennedi وتيبستيTibesti وكانم Kanem ووداي Ouaddai ، حيث إنتشرت الزوايا السنوسية في معظم المناطق التشادية ، وعليه فإن الدفاع عن تشاد صار لدى الليبيين واجباً تفرضه العقيدة الإسلامية لمقاومة المدِّ ألتنصيري الفرنسي ، فيما عُرف بحرب الأنصار (١٨٩٩ . ١٩١٣) [٤٩].

ذكر المؤرخ الليبي محمود الشنيطي بأن الفرنسيين أخذوا يتغلغلون في إفريقيا العربية عن طريق نهر السنغال الأعلى وأسسوا مستعمرة جديدة في الكونغو ، ثم إمتد نفوذ الفرنسيين إلى شاطئ النيجر الأعلى واحتلوا تمبكتو عام ١٨٩٤ ، واتفقوا مع بريطانيا عام ١٨٩٠ ومع ألمانيا عام ١٩٩٤ على أن يكون معظم الصحراء الوسطى والغربية منطقة نفوذ فرنسية ، وذكر بروشين أن فرنسا وقعت إتفاقين آخرين مع بريطانيا في عامي ١٨٩٨ و١٨٩٩ حصلت فيهما فرنسا على حق مد مستعمراتها لتشمل كانم ووداي وباجرمي وبرنو وتيبستي . وهكذا تزعمت فرنسا مهمة الهجوم الإعلامي والسياسي على الحركة السنوسية وأرسلت عدد من الرحالة للتجسس عليها وجمع المعلومات عنها ومنهم الرحالة هنري دوفرييه الذي حمل السنوسية جميع حوادث الإغتيال للرحالة الأجانب في الصحراء، كما أكد أنها حركت ودعمت جميع الثورات التي حدثت في الجزائر ضد الفرنسيين، ويشهد دوفرييه على قوة نفوذ السنوسية وسطوتها في فزان عندما ذهب إليها سنة ١٨٦١ بصحبة الجند رمة الفزانية وتوصيات السلطان العثماني ألا أن مقدم الزاوية لم يعترف بذلك وأصر على طرد دوفريية وأصحابه من المقاطعة بأسرع وقت [٥٠] .

وفي عام ١٨٩٥ اتخذ المهدي قرارا مهما يقضي بنقل مقر الحركة من الجغبوب إلى الكفرة ، وكان من أسباب إتخاذ هذا القرار هي الضغوط العثمانية عليه ، واتساع التغلغل الفرنسي في السودان الغربي ، حيث بدأت الدول الأوربية بحبك المؤامرات عليه لدى الباب العالي الذي أرسل إليه عدد من الوفود دعته لزيارة اسطنبول ، وحال وصوله إلى الكفرة باشر بأعمار الواحة ، وسرعان ما تحولت الواحة إلى مدينة عامرة إزدهرت فيها الحركة التجارية والدينية[٥١] ، وفي غضون ذلك كان الإستعمار الفرنسي يتوسع تدريجيا على حساب الإمارات الإسلامية في غرب القارة الإفريقية ، وكان محمد المهدي إذاك يعمل على ترصين البناء الداخلي للحركة فعمد إلى إيقاف الحروب بين القبائل وإصلاح ذات البين بينها لمواجهة المعارك القادمة ضد الإستعمار الزاحف [٥٢].

علل بعض المؤرخين ومنهم الدكتور محمد فؤاد شكري مؤرخ الحركة السنوسية ، خروج زعيم الحركة السنوسية محمد المهدي آنذاك من الكفرة إلى قرو ، بظهور مملكة رابح في تشاد قائلا إن

أكبر ما كان يخشاه " السيد المهدي زيادة سطوة رابح لدرجة تلحق الوهن بالإمارات الإسلامية حول بحيرة تشاد ، فلا تستطيع مقاومة خطر أشد وأقسى كان يتهدد سلطنة رابح والسنوسية والإمارات الإسلامية جميعا هو خطر الفرنسيين الزاحفين على هذه الأقطار يريدون إمتلاكها"[٥٣].

ويبدو أن نشاط رابح في جنوب بحيرة تشاد كان يكتنفه الغموض بالنسبة للحركة السنوسية ، ألا انه بالتأكيد لم يكن يشكل الخطر الأكبر عليها كما هو الحال بالنسبة للخطر الفرنسي ،وبالتالي إن ما ذهب إليه المؤرخ شكري أنفا ربما كان نابعا من تأثره بالمصادر الغربية التي تناولت نشاط رابح في ذلك الجزء من تشاد ، ومن خلال ما كتبه شكري نستطيع أن نتلمس الإرتباك والتناقض في عرضه لهذا الموضوع ،فيقول مثلا :" كان طبيعيا أن يلمس السيد المهدي هذه الإخطار جميعا ويبذل الجهد لتوقيها ، واستطاع بحكمته أن يحفظ نفوذ السنوسية كعامل من عوامل السلام في هذه الأقطار التي كان يهددها رابح بغزوه بين حين وآخر ، وكان مما ساعد على دعم نفوذ السنوسية في برقو[٥٤] ووداي وغيرها أن رابح نفسه ، منذ أن أطمأن إلى ملكه الجديد ، طفق ينشي الصلات الودية مع الإمارات الكبيرة المجاورة ، وصار يهمه ولا ريب ألا يشتبك مع السنوسية في منازعات خطيرة ، لبعد مركزه عن مقر السنوسية ومكمن قوتهم من جهة ، ولأن توسعه كان يجري نحو الغرب على شواطئ بحيرة تشاد الجنوبية والغربية في مملكة برنو خصوصا " .[٥٥]

لم يمتلك شكري وغيره من الباحثين أي دليل على أن رابح كان يضمر السوء للحركة السنوسية ، لاسيما أنها لم تكن تشكل دولة قائمة آنذاك حتى تثير اهتمام رابح بها ، ثم أنها – وكما ذكر شكري – بعيدة عن مملكته ولا يمكنه أن يشكل خطرا عليها ، ثم إن ما اثأر مخاوف السنوسيين هو الخطر الفرنسي تحديدا بعد احتلال الفرنسيين لتمبكتو عام ١٨٩٤ المدينة الأقرب إلى أماكن إنتشار الحركة السنوسية في جنوب الصحراء مما جعلها قاب قوسين أو أدنى من ذلك الخطر . وهذا ما أكده على محمد الصلابي إذ قال :" كان الإمام المهدي يرسل البعثات الإستكشافية في الصحراء ، وحفر الآبار ويتفقد الطرق الموصلة إلى وسط السودان الغربي ، وكانت تلك الإستعدادات تجري على قدم وساق في جو من الكتمان الشديد ، وبعد أربع سنوات من المكوث في الكفرة شد رحاله إلى زاوية قرو[٥٦] في برقو في السودان الغربي ليشرف بنفسه على تنظيم المقاومة واتخاذ الأهبة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة تشاد" [٥٧].

ولهذا غادر محمد المهدي الكفرة مع أسرته وكبار قادة الحركة السنوسية وشيوخ الزوايا وزعماء القبائل في عام ١٨٩٩ وكان معه نحو ١٦٠٠ رجل ، وقد استغرقت رحلته من الكفرة إلى قرو نحو شهرين ، وحال وصوله إلى قرو أخذ ينشر دعوته الإسلامية ، وأرسل محمد البراني إلى كانم فبنى زاوية في بئر العلالي ، وطفق يجمع جيشا من قبائل التبو والطوارق وأولاد سليمان والزوي والمجابرة لمواجهة الغزو الفرنسي [٥٨].

والجدير بالذكر أن الزوايا السنوسية في الصحراء الليبية وجنوبها وفي السودان الغربي عموما توزعت على خارطة جغرافية شاسعة تبدأ من زاوية التاج في الكفرة ، ومن أهم الزوايا التي أسسها محمد المهدي في تشاد هي قرو وكان شيخها الشيخ محمد السني السوداني الأصل والذي سبق إن أسس زاوية مزدة ، وزاوية الوجنقة الكبرى وزاوية الوجنقة الصغرى وزاوية بئرعلالي في كانم وزاوية عين كلكة في تيبستي وكان أول شيوخها الشيخ البراني الساعدي وأعقبه بعد استشهاده الشيخ عبد الله طوير[٥٩]،كما أسس زاوية كانو في النيجر حتى بلغ عدد الزوايا التي تنتشر بين الكفرة والنيجر نحو ستة عشر زاوية ، شكلت مع الزوايا الأخرى التي تأسست في فزان مثل زاوية مرزق وواو وزويلة وهون وسوكنة وغات وتازربو التي كان يديرها الشيخ محمد المدني وزاوية ربيانة وغيرها قاعدة متكاملة ومتصلة للجهاد [٦٠]، وذهب معظم المؤرخين إلى أن السنوسية وصلت إلى ذروة الانتشار في عهد محمد المهدي (١٨٥٩– ١٩٠٢) حيث وصل عدد الزوايا السنوسية إلى ١٦٤ زاوية موزعة على برقة وطرابلس وفزان والكفرة والسودان الغربي جنوب الصحراء ومصر والحجاز، وكل هذه الزوايا تحولت إلى ربط إسلامية تغذي حركة الجهاد وتمدها بالعدد والعدة[٦١].

كانت حركة المقاومة العربية الإسلامية للغزو الفرنسي قد نشطت في أرجاء متعددة من السودان الغربي ، ففضلا عن رابح بن الزبير في جنوب تشاد كان غيث عبد الجليل سيف النصر شيخ قبيلة أولاد سليمان المتواجدة في منطقة كانم قد انظم إلى الحركة السنوسية واخذ يقود المقاومة ضد الفرنسيين منذ عام ١٨٩٩، وخاض ضدهم معارك طاحنة أدت إلى إيقاف تقدمهم نحو بئر العلالي ففي ٢٢ تشرين الثاني ١٨٩٩ تمكن من سحق القوة الفرنسية ، كما خاض ضدهم معركة أخرى في ٤ كانون الثاني ١٩٠٠ استشهد فيها حليفه خليفة حاجي ، مما شجع الفرنسيين على استغلال الموقف وإجراء اتصالات مع غيث حاولوا فيها التوصل معه إلى اتفاق لإنهاء المقاومة في كانم ، لكن غيث رفض هذا العرض رفضا قاطعا حتى انه رفض الاجتماع بالفرنسيين[٦٢].

معركة بئر العلالي في كانم:

منذ آن حط رحاله في قرو اخذ محمد المهدي يتهيأ لمواجهة الفرنسيين والذين كانوا يستعدون هم بدورهم لمعركة فاصلة مع السنوسيين ، فأرسل محمد المهدي الشيخ محمد البراني الساعدي إلى كانم فبنى زاوية في بئرالعلالي ، وطفق يجمع جيوشا من التبو والطوارق وأولاد سليمان والزوية والمجابرة [٦٣] لمواجهة الزحف الفرنسي ، في حين انتهت المقاومة المسلحة للغزو الفرنسي التي كان يقودها رابح بن فضل الله المعروف برابح الزبير في الجزء الجنوبي والجنوب الغربي من تشاد ، وقد بدأت القوات الفرنسية بالتقدم نحو إقليم كانم شمالا ، وتشكلت في كانم حركة مقاومة شعبية ضمت قبائل مختلفة من الليبيين من أولاد سليمان والزوية وورفلة والقذاذفة والمغاربة بزعامة غيث عبد الجليل سيف النصر زعيم قبائل أولاد سليمان وانضمت إليهم مجموعات ثانية من التنجور[٦٤]

والقرعان بقيادة خليفة حجي، وقد ازدادت المقاومة في وجه القوات الفرنسية بعد وصول النجدات من طوارق كاوار في النيجر بزعامة الشيخ خنجر من جهة والنجدات والإمدادات التي كان يبعثها المهدي السنوسي وابن أخيه احمد الشريف اللذين اتخذا من واحة قرو قاعدة متقدمة في الأراضي التشادية لتنظيم طلائع المجاهدين وتنظيم قوافل الأسلحة والتموين القادمة من ليبيا عن طريق الكفرة[٦٥].

وخاض المجاهدون معارك متعددة مع الفرنسيين في منطقة كانم من أهمها معركة العصفر ومعركة نقوري والمعارك التي جرت في موقع الزاوية السنوسية في بئر العلالي في يوم ٩ تشرين الثاني ١٩٠١، حيث جرت معركة بئر علالي الأولى بين المجاهدين من القبائل الليبية (الزوية ، الطوارق، التبو ، الحساونة– المغاربة ، القذاذفة، الشريدات ، اللهيوات ، ورفلة) وحلفائهم من القبائل التشادية من جهة ، وبين القوات الفرنسية التي لم تستطع الصمود أمام المجاهدين حيث تم فيها هزيمة الفرنسيين ومطاردتهم لمدة ٧ ساعات و قتل فيها ميلوMillot قائد القوات الفرنسية في تشاد و قائد للمعركة (حسب مصادر فرنسية)القوات الفرنسية التي لم تستطع الصمود أمام المجاهدين ، وكان هذا أول صدام مسلح بين القبائل الليبية المتواجدة في تشاد والفرنسيين ، ويصف محمد فؤاد شكري هذه المعركة بالقول: تقدم الفرنسيون صوب كانم واستعد السنوسيون لملاقاتهم ، فوضعوا حامية كبيرة في بئرالعلالي ، وعهد السيد المهدي إلى إبن أخيه السيد احمد الشريف بإدارة الحرب والجهاد ضد الفرنسيين، واشترك في القتال قادة من السنوسيين على رأسهم محمد البراني وعمر المختار واستطاع المجاهدون إحراز بعض الانتصارات ولكن معدات الحرب الحديثة كانت لها الغلبة في النهاية [٦٦] ، أما الصلابي فيصف المعركة بالقول إن الحملة الفرنسية اشتبكت في معركة حامية الوطيس مع السنوسيين وكان النصر حليف المدافعين برئاسة الشيخ محمد البراني الساعدي ، فأرتدت الحملة الفرنسية خائبة بعد إن تركت ميدان المعركة مغطى بأشلاء القتلى والجرحى والمعدات ، واستشهد عدد كبير من المجاهدين السنوسيين منهم الشيخ عبد الله بن موسى فريطيس ، وعندما وصل الخبر إلى الإمام المهدي السنوسي أرسل نجدة لدعم المجاهدين[٦٧].

ثم جرت معركة بئر العلالي الثانية في يومي ٤–٥ كانون الأول ١٩٠٢ وكان عبد الله الطوير على رأس المجاهدين الذين تصدُّوا للغزو الاستعماري ألتنصيري لتشاد ، وخاض معارك موفّقة متعددة ، وسقط من رفاقه المجاهدين في هذه المعركة مئة شهيد ، كان من بينهم ستون من قبيلة الزوية وحدها ، فاستأنف الفرنسيون الهجوم مرة أخرى واستشهد عدد من المجاهدين من بينهم غيث سيف النصر وأبو بكر قويطين ويونس بدر والسنوسي خير الله وغيرهم بينما تكبد الفرنسيون مائتين وثمانين قتيلا بينهم خمسة وعشرون ضابطا ، وفي اليوم التالي زحف الفرنسيون بقوة كبيرة

اشتبكت مع المجاهدين بمعركة حامية الوطيس أجبرت المجاهدين على الانسحاب واحتلال الفرنسيين لزاوية بئرعلالي[٦٨].

وفي غضون ذلك وصلت نجدة إلى المجاهدين يقودها محمد عقيلة الذي قاد الهجوم المقابل لاستعادة بئر العلالي في المعركة الثالثة مع الفرنسيين في هذا الموقع، وهاجم موقع عسكري أقامه الفرنسيون خارج بئرعلالي ودارت معركة دامية أسفرت عن احتلال الموقع الفرنسي والاستيلاء على ما فيه ، ودفع هذا النصر القائد السنوسي إلى اتخاذ قرار عاجل بالهجوم على الفرنسيين في بئرالعلالي بالرغم من أن بعض المجاهدين نصحوه بالتريث والاستعداد جيدا لهذا الهجوم ، ألا أن القائد صمم على تحرير بئر العلالي حالا أو يستشهد في سبيل الله وهذا ما وقع فعلا ، فقد هاجم المعسكر الفرنسي بروح جهادية عالية حتى استشهد في هذه المعركة وانسحب المجاهدون بعد إن تكبد الطرفين خسائر كبيرة [٦٩] .ومن هؤلاء الشهداء محمد بو عقيلة الزاوي الذي عينه احمد الشريف قائدا لحصن بئر العلالي بدلا من البراني الساعدي الذي نقل إلى جبهة عين كلكة في الشمال ، وقد عرف بو عقيلة بنشاطه وشجاعته وكان بارعا في فنون القيادة والحرب حتى اعترف الفرنسيون له بذلك فقال عنه احدهم :"كان بو عقيلة جنديا عظيما قادرا على تدارك المواقف في الوقت المناسب"[٧٠].

كانت أسلحة المجاهدين تتكون من بنادق خفيفة وقديمة وبعض السهام والرماح ، وفي المقابل كانت أسلحة الفرنسيين تتكون من المدافع والبنادق الرشاشة ، ولذلك أحرزت القوات الفرنسية انتصارا حاسما على قوات المجاهدين السنوسيين في معركة بئر العلالي الأخيرة التي جرت في يومي ٤ و٥ كانون الأول ١٩٠٢ ،وهكذا أخلى المجاهدون إقليم كانم وتغيرت إستراتيجيتهم بالاعتماد على الهجمات الخاطفة بدلا من المواجهة المسلحة ، وكانت الأسلحة والإمدادات تصل إليهم من بنغازي بواسطة طرق القوافل بأمر من احمد الشريف [٧١].

كان الخطأ الكبير الذي ارتكبته الحركة السنوسية بقيادة محمد المهدي في هذه المرحلة ، هو مبالغتها الكبيرة في التزام مبدأ الحياد في الصراع الدائر في إفريقيا ، وعدم اقترابها أو تحالفها مع الدولة العثمانية أولا بوصفها قوة دولية فاعلة على الساحة الدولية ، وكان بإمكانها أن تقدم للحركة السنوسية الغطاء السياسي الدولي فضلا عن الدعم العسكري بالأسلحة والعتاد والمقاتلين ، ثم إنها انكمشت عن الانفتاح على الإمارات الإسلامية الأخرى في المنطقة والتي كانت تخوض صراعا عسكريا مصيريا مع الاستعمار الفرنسي مثل إمارة رابح بن الزبير وغيرها وكان يفترض أن يقدم له السنوسيون الدعم العسكري في الحرب التي خاضها ضد الزحف الفرنسي ، فقد كانت خط الدفاع الأول أمام هذا الزحف وبانهيار دولة رابح ومقاومته إنفتح الطريق أمام الفرنسيين للتوغل في العمق الإفريقي والاصطدام بالحركة السنوسية وجها لوجه .الخطأ الذي أدركه قائد الحركة الجديد احمد

الشريف وحاول تلافيه من خلال انفتاحه على الدولة العثمانية وتحالفه مع الإمارات الإسلامية المحيطة به .

أحمد الشريف والتحول إلى إستراتيجية حرب العصابات :

في تلك الظروف الحرجة توفي محمد المهدي السنوسي في ٢حزيران ١٩٠٢ في زاوية قرو ونقل جثمانه إلى الكفرة ودفن في زاوية التاج ، فتولى احمد الشريف قيادة الحركة والذي ولد في الجغبوب سنة ١٨٧٣ ،وتربى في حجر والده العلامة محمد الشريف وعمه المهدي السنوسي الذي صحبه في رحلته من الجغبوب إلى الكفرة ، ثم من الكفرة إلى قرو في السودان الأوسط ، كما خاض مع عمه المهدي عددا من المعارك ضد الاستعمار الفرنسي هناك .ولما توفي عمه المهدي انتخب زعيما للحركة السنوسية في ١٩ حزيران ١٩٠٢ ، فواصل الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي ونشر الدعوة الإسلامية بكل حكمة في إفريقيا ، واتخذ من الكفرة عاصمة للحركة وأناب عنه محمد السني لإدارة أمور الجهاد[٧٢] ، في غضون ذلك ، تضافرت عوامل متعددة أجبرت الفرنسيين على تغيير سياستهم في بلدان إفريقيا الوسطى وعدم توسيع نطاق الحرب وفتح جبهات متعددة فيها ، من هذه العوامل مثلا اتساع رقعة المنطقة وبعد الأقاليم عن بعضها وحالة الرعب التي سيطرة عليهم بسبب الهجمات الخاطفة التي كان يشنها المجاهدون ضدهم ، فلجأ الفرنسيون إلى نمط جديد للقضاء على المقاومة بإتباع أسلوب التغلغل السلمي ، وكانت تقارير القادة العسكريين في تشاد تؤكد على عدم التورط في مواجهة مسلحة في منطقة وداي ، التي يقدر عدد قواتها بعشرين إلف مقاتل فضلا عن المتطوعين القادمين من ليبيا ودارفور ومناطق المسلمين الأخرى ، وقد اخذ التغلغل الفرنسي في وداي إشكالا متعددة مثل إتباع سياسة فرق تسد وبث الفتن والدسائس بين السلاطين والأمراء على أيدي مجموعة من العملاء الباقرميين الذين تم تجنيدهم من قبل النقيب الفرنسي لارجو Largeau ، وكذلك فرض الحصار الاقتصادي ومنع التبادل التجاري بين وداي والمناطق الخاضعة للفرنسيين ، وتزايد الاهتمام الفرنسي بمملكة باقرمي وإغراقها بالسلع وتوفير الأمن والسلام بين سكانها لجعلها نموذجا يحتذى به [٧٣].

بعد سقوط زاوية بئر العلالي وهي الموقع الدفاعي المتقدم للحركة السنوسية في كانم شرق بحيرة تشاد انسحب المقاتلون السنوسيون إلى زاوية عين كلكة التي اتخذوا منها خطا دفاعيا وقاعدة لشن الهجمات ضد الفرنسيين، ودارت هذه الحرب على جبهتين في وقت واحد هما جبهة وداي وجبهة عين كلكة.

المعارك على جبهة وداي:

فعلى الجبهة الوداوية استطاع الفرنسيون إن يكسبوا ولاء احد الأمراء الوداويين إلى جانبهم بما قدموه له من إغراءات وهو محمد آدم أصيل الذي عين عقيدا[٧٤] على منطقتي الدبابة ومندلي ،

وكان شديد الطموح إلى السلطة ، لذلك أعلن تمرده على ابن عمه السلطان احمد غزالي (١٩٠٠ – ١٩٠١) وهرب إلى الجنوب مع أتباعه ومن هناك اخذ يشن الهجمات على أطراف الدولة الوداوية ناشرا الرعب والفزع بين الأهالي فاستغل لارجو هذا النزاع واستمال أصيل إلى جانبه ودفعه إلى توقيع اتفاقية تعاون مع الفرنسيين في شباط ١٩٠٣ موجهة ضد سلطان وداي احمد غزالي ، وعمل الفرنسيون على تنصيب أصيل ملكا على عرش وداي وأمدوه بالمال والسلاح لشن الهجمات على المملكة ، ولم يفلح احمد غزالي بوضع حد له والقضاء عليه وأصبحت البلاد مهددة بالسقوط في أيدي الفرنسيين[٧٥]. وكان السنوسيون يراقبون عن كثب تطورات هذا الصراع في وداي استعدادا لاتخاذ موقف حاسم منه .

تحالف السنوسية مع السلطان محمد صالح دود مرّه[٧٦]:

بعد إن امتدت الدعوة السنوسية إلى الجغبوب اخذ الإسلام ينتشر في وداي لاسيما بعد إن تقدم جماعة من سكان إحدى واحات الكفرة بطلب إلى السيد محمد بن علي السنوسي بأن يؤسس زاوية في منطقتهم ، فأنشئت هناك الزاوية الأولى في واحة الجوف ، واستخدم السنوسيون اساليبا تقوم على روح التسامح ومبادئ الإنسانية العادلة لنشر الإسلام في وداي ، حيث كان يشتري قوافل العبيد التي كانت تتجه نحو الشمال ويقوم بتحريرهم وإدخالهم بالإسلام ومن ثم إرسالهم دعاة ومبشرين بين أهليهم ،وبذلك اعتنق عدد كبير من أهالي ودان الإسلام وأصبحوا من أتباع الدعوة السنوسية ، وقد ظهر من بينهم قادة مسلمون أدوا دورا مهما في مقاومة التغلغل الفرنسي في وداي ومن أبرزهم محمد صالح دود مرة الذي ولد سنة ١٨٧٩ من والدين وداويين ، وكان معروفا بروحه الوطنية التي دفعته إلى إن يضع حدا لحكم السلطان احمد غزالي الذي أصاب البلاد بالتدهور، فسيطر على الحكم وارتفعت مكانته لدى الشعب ، لذلك سعت الإدارة الفرنسية إلى استمالته فبعث الحاكم العسكري الفرنسي لإقليم تشاد النقيب لارجو رسالة إلى دود مرّه يعرض عليه قبول الحماية الفرنسية على كامل تراب مملكة وداي وفتح الأسواق إمام السلع الفرنسية وإنعاش التجارة بين المملكة وبقية أقاليم تشاد الخاضعة للإدارة الفرنسية وكانت الوسيطة بين لارجو ودود مرّه هي أخته الأميرة ميرام ، وكبادرة لكسب ثقة دود مرّه، أقدم لارجو على اعتقال ونفي محمد آدم أصيل إلى مدينة لاي في أقصى جنوب تشاد وذلك في حزيران ١٩٠٣[٧٧] .

في هذه الإثناء شرع احمد الشريف السنوسي في تشكيل جبهة إسلامية لمواجهة الغزو الفرنسي الزاحف من جنوب تشاد إلى شرقها وشمالها فأتصل بسلطان وداي دود مرّه سنة ١٩٠٣ وأقنعه بسحب اعتراف وداي بالحماية الفرنسية على كانم وباقرمي فاستجاب السلطان لطلبه وسحب اعترافه بالحماية الفرنسية [٧٨].

أدى موقف دود مرّه الرافض للحماية الفرنسية إلى تغير الموقف الفرنسي نحوه ، فأطلق الفرنسيون سراح أصيل من منفاه سنة ١٩٠٥ وأمدوه بالأسلحة والمعدات ليستأنف الغارات الحربية على إطراف البلاد طيلة السنوات ١٩٠٦ – ١٩٠٨ شملت مناطق متعددة مثل بولونغ وآتيا وبورويلا وأبشة عاصمة وداي نفسها ، وانتشر أنصار أصيل في طول البلاد وعرضها يحرضون الناس على الثورة ضد دود مره والاستسلام للسلطات الفرنسية [٧٩] ، وفي ٢حزيران ١٩٠٩ هاجمت القوات الفرنسية بالتعاون مع قوات صنيعتهم أصيل ، مدينة أبشة عاصمة مملكة وداي ومحاصرة السلطان دود مره الذي اضطر إلى الانسحاب إلى خارج البلاد بعد معركة ضارية ولجأ إلى احمد الشريف في منطقة أنيدي وبرقو ، فوضع احمد الشريف إمكاناته المادية والعسكرية تحت تصرف دود مرّة وزوده بالمقاتلين كما اجرى اتصالات متعددة مع ملوك وسلاطين المناطق المجاورة مثل سلطان دارفور علي دينار[٨٠] وسلطان الجنينة تاج الدين وسلطان دارسيلا بخيت بهدف خلق جبهة إسلامية موحدة لوقف الزحف الفرنسي ، وبالفعل بدأت الإمدادات تصل من هذه الإطراف إلى دود مرّه ، الأمر الذي دفع المقدم مول Moll قائد العمليات العسكرية الفرنسية في تشاد إلى محاولة الحد منها وتوجيه ضربة إلى هذا التحالف الإسلامي ، فحرك قوة عسكرية من دارمساليت لمهاجمة قوات دود مرّه وحلفائه والتمركز في منطقة الحدود بين دارفور ووداي لقطع الإمدادات التي تصل من دارفور إلى وداي ، وبناء على ذلك قامت قوة فرنسية بقيادة النقيب فينيك يوم ٤ كانون الثاني ١٩١٠ بالهجوم على مقر قوات الجنينة بقرية بئر طويل ، ودارت معركة شديدة الضراوة منيت فيها القوات الفرنسية بخسائر كبيرة حيث قتل النقيب فينيك وضابطان آخران ورقيب مع مائة جندي فرنسي آخر و ٨٠ جندي من قوات أصيل . إلا إن قوات التحالف الإسلامي وجهت ضربة موجعة أخرى للقوات الفرنسية يومي ٧و٨ نيسان ١٩١٠ في دار تاما والقريدة ، مما دفع المقدم مول إلى إن يطلب من الحاكم العسكري الفرنسي في برازافيل إن يمده بقوة عسكرية لنجدته ، فوصلت إليه قوة عسكرية مؤلفة من ٣٠٠ جندي فرنسي مع مدفعين ساعدت مول ومساعديه الملازمين جولي Jolly وبريلي Brule على شن هجوم أخرفي تشرين الثاني ١٩١٠ على مقر قوات دارفور والجنينة بقرية دورتي ، ودارت معركة عنيفة أسفرت عن استشهاد السلطان تاج الدين ومقتل قائد القوة الفرنسية مول ومساعديه .[٨١]

ولم تتوقف الهجمات الفرنسية عند هذا الحد بل استأنفت هجومها على قوات التحالف الإسلامي في شباط ١٩١١ بقيادة النقيب مودا Modat وهاجمت قوات محمد السنوسي حاكم دار كوتي الذي خاض معركة ضارية أدهشت الفرنسيين وأسفرت عن استشهاده مع عدد من معاونيه و ٢١٠ من مقاتليه بينما قتل من الفرنسيين ١١٠ جنود وعدد كبير من قوات أصيل المتحالفة معها[٨٢] ، في غضون ذلك نصبت الإدارة الفرنسية في تشاد أصيل ملكا على البلاد في ٢٢ آب ١٩٠٩، بعد إن

بذل أقصى جهوده لخدمة الإدارة الفرنسية وشارك بقواته في كل المعارك والغارات مع القوات الفرنسية ضد المقاومة والقرى والمدن التشادية (الوداوية) ، وسام شعبه شتى أنواع العذاب ولم يسلم من قسوته حتى إخوته وأصبح يمثل أحسن رمز للعمالة وخدمة الاستعمار . ألا أن الإدارة الفرنسية أدركت أن لا استقرار لها ما دام دود مرة يقود المقاومة ضدها ، فعادت مرة أخرى إلى مساومته بمنحه عرش تشاد في مقابل قبوله الحماية الفرنسية بعد إن عجزت عن القضاء عليه وتشتيت أتباعه ، ولجأت أخيرا إلى الأسلوب الدبلوماسي للضغط على دود مره وإرغامه على قبول التفاوض ، ومن ذلك ما ذكره القنصل الفرنسي في الإسكندرية ريبو Ribot في برقيته التي بعث بها إلى وزارة المستعمرات الفرنسية بتاريخ ٢٧ أيار ١٩١٠ قائلا : إن حكومة السودان أصدرت أمرها إلى سلطان دارفور علي دينار بأن يتوقف عن دعم دود مره في وداي [٨٣]، كما مارست فرنسا ضغطا على الباب العالي لإجبار احمد الشريف على إيقاف دعمه إلى دود مره ، وهذا ما عبر عنه القنصل الفرنسي في اسطنبول بومبار Bompart الذي بعث برقية إلى حكومته في 28 تشرين الثاني ١٩١١ قال فيها : إن الباب العالي طلب من حكومة بنغازي بأن تمنع أهالي منطقة الكفرة والسنوسيين من تقديم إي عون إلى سلطان وداي ، الأمر الذي أكده المجاهد احمد الشريف نفسه في رسالة بعث بها إلى احد أصدقائه في القاهرة ذكر فيها إن الحكومة الفرنسية اشتكت إلى الدولة العلية بأن قوات المجاهدين السنوسيين في تشاد والتجار الليبيين قد أعانوا السلطان محمد صالح دود مره في حربه ضد فرنسا[٨٤].هكذا أصبحت تدريجيا حركة المقاومة التي كان يقودها دود مرة ضد الغزو الفرنسي وحيدة في الميدان بعد إن تخلى عنها سلطان دارفور علي دينار بسبب الضغوط التي مورست عليه ، وانسحاب معظم المجاهدين الليبيين من ارض تشاد على اثر الغزو الايطالي لليبيا عام ١٩١١، وانشغال احمد الشريف بمواجهة هذا الغزو ، وكذلك استشهاد كل من سلطان الجنينة تاج الدين ومحمد السنوسي حاكم داركوتي عام ١٩١١ ، كل هذه الإحداث أجبرت دود مره على الاستسلام للقوات الفرنسية .

ففي ٢٥ تشرين الأول ١٩١١ تلقى دود مره رسالة من لارجو الحاكم العسكري الفرنسي في تشاد تعهد فيها بالسماح له بدخول أبشة مع وعد بالمحافظة على حياته وحياة إفراد أسرته ، وبعد يومين فقط دخل دود مره أبشة في موكب كبير ممتطيا جواده الأبيض وتحيط به زوجاته ووالدته وكوكبة من الفرسان والعقداء مع ١١٠ فارسا آخرا و١٣٠ راجلا وقد أعدت السلطات الفرنسية له استقبالا يليق به حضره ثمانية ضباط فرنسيين وبعض القوات الفرنسية مع ٢٥٠ فارسا من قوات أصيل وفي اليوم التالي صدر قرارا بمنح دود مره راتبا شهريا قدره إلف فرنك فرنسي ، وفي الشهر التالي نفي إلى فورت لامي التي بقي فيها حتى وفاته في ٦ نيسان ١٩٢٧[٨٥].

إما أصيل فبعد استسلام دود مره أعلنت السلطات الفرنسية في تشاد بأنه لم يعد مرغوبا فيه كملك على البلاد وألقت القبض عليه في ١٦ حزيران ١٩١٢ بتهمة التحريض على الثورة ضد الفرنسيين ، وفي ٢٢تموز صدر حكم بالسجن عليه مدة عشر سنوات وسجن في فورت لامي حتى وفاته في ٢٤ حزيران ١٩١٥[٨٦] ، وبعد انتهاء حركة المقاومة وضعت فرنسا تشاد تحت حكمها الاستعماري المباشر.كان دور دود مره في جهاده مشابها لدور رابح بن الزبير ، إما دور أصيل في عمالته لفرنسا وخيانته لدود مره فقد كان مشابها لدور سلطان باقرمي عبد الرحمن غاورانج الثاني في عمالته لفرنسا وخيانته لرابح بن الزبير، وهكذا تتشابه ادوار المجاهدين والأبطال كما تتشابه ادوار العملاء والخونة .

المعارك على جبهة عين كلكة:

اجري احمد الشريف اتصالات مع الدولة العثمانية أسفرت عن قيام الباب العالي بإرسال ثلة من الجنود النظاميين إلى برقو وتيبستي وتأسيس قائممقامية الكفرة ، وكانت هذه خطوة مهمة لحماية الجنوب الليبي من التوسع الاستعماري الفرنسي باعتبارها أصبحت من الممتلكات العثمانية ، وتم تعيين الشيخ كيلاني الاطيوش – والد المجاهد الليبي المعروف صالح الاطيوش وهو من قبيلة المغاربة الليبية – قائممقاما عليها ، ورفعت الراية العثمانية في وان قرب عين كلكة، وكان يدير حركة الجهاد السنوسية هناك في ذلك الوقت هو الشيخ محمد السني الذي كان قد أرسله محمد المهدي في وقت سابق إلى أبشة عاصمة واداي ليتولى هذه المهمة ويتوسع في فتح الزوايا السنوسية في السودان الغربي[٨٧] .

وصل المجاهد عبد الله الطوير إلى تشاد سنة ١٩٠٢، وانضم إلى رفاقه المجاهدين في زاوية عين كلكة وكانت في الأساس منارةً لتحفيظ القرآن الكريم ، وتلقين مبادئ الإسلام لأهالي تلك المناطق البعيدة عن مصادر الإشعاع العلمي ، ثم أصبحت في ما بعد تتعاظم شوكتها ويتسع نفوذها ومدِّها ، الأمر الذي أقلق الفرنسيين الذين كانوا يبسطون نفوذهم على القارة السمراء وكانوا يحاربون الزوايا الدينية هناك ويهاجمونها ، ويغرون الأهالي بالانضواء تحت الحماية الفرنسية ، ولم يكن هناك من بدٍّ أمام هذه الزوايا سوى الدفاع عن نفسها ضد الحملات الفرنسية المنظّمة ، فتشكّلتْ (الأدوار) الحربية التي كانت تتلقّى الدعم والتوجيه من السيد أحمد الشريف ، عن طريق مستشاره أحمد الريفي ،وفي أيار ١٩٠٤قام المجاهدون بهجوم مفاجئ على القوات الفرنسية في بئر العلالي وأخذوا الجمال التي يستخدمها الفرنسيون في تنقلهم ، كما قام المجاهد عبد الله الطوير بهجمات ليلية على القوات الفرنسية ، أبرزها الهجوم على منطقة زقيي ، وتمكّن من صد هجوم فرنسي على المجاهدين يوم ١٩حزيران١٩٠٤ ، وخلال المدة (١٩٠٢ .١٩٠٧) لم تستطع القوات الفرنسية التوغل في الدواخل ، وتركزت العمليات العسكرية التي كان يقوم بها المجاهدون على الحرب

الخاطفة والهجمات الليلية لإحداث نوع من الإرباك بين صفوف الفرنسيين ، معتمدين في ذلك على الجمال كوسيلة مواصلات لا يتمكن الفرنسيون من محاصرتها ، وبعد استشهاد الشيخ البراني الساعدي رئيس زاوية عين كلكة يوم ٢٠ نيسان١٩٠٧ تمَّ تكليف عبد الله الطوير خليفةً له على دور زاوية عين كلكة، وتمَّ دعم الزاوية بسبعين مقاتلاً من قبيلة المجابرة ، غادروا الكفرة بأسلحتهم ، للالتحاق بالزاوية ، وعندما استلم قيادتها قام عبد الله الطوير بفتح مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم والعلوم الدينية ، وضم مناطق زقيي ، يراردا ، واو لزاوية عين كلكة، وقام الشيخ بتشجيع الزراعة في تلك المناطق ، وإرسال المنتجات الزراعية إلى الكفرة(٨٨). شاركت قبيلة الزوية مشاركة فعالة في مقاومة الغزو الفرنسي وكان من ابرز قادتها الشيخ البراني الساعدي الذي أسس زاوية شرقي السلوم مازالت تعرف باسمه حتى اليوم وهي سيدي براني ، قاد حركة الجهاد في كانم وشمال تشاد وقد عرف الدور الجهادي الذي قام به باسمه "دور البراني " الحق بالفرنسيين عدة هزائم في بئر العلالي واستطاع إن يصدهم في عين كلكة التي تولى تنظيم المجاهدين فيها حتى استشهد عام ١٩٠٧(٨٩) ، وهناك خطاب موجّه بتاريخ ٢٥ رمضان ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م من المجاهد عبد الله الطوير إلى أحمد الريفي مستشار احمد الشريف ، يُعلمه فيها بالانتصارات التي حقّقها المجاهدون على الفرنسيين ، ويطلب فيها المدد والسلاح، ولم يكتفِ هذا المجاهد ببقائه محصَّناً في زاوية عين كلكة، فمنطقة تشاد لا تعني هذه الزاوية فقط ، بل إن كلَّ ما طالته أيدي الفرنسيين يجب افتكاكه منهم ومقاتلتهم عليه ، وهكذا ، فإنه وبعد احتلال الفرنسيين لمنطقة وداي دبّر هذا البطل هجوماً على مخيم للفرنسيين في منطقة كانم، لأن ما حققه عبد الله الطوير من انتصارات كان مرجعه السرعة الحاسمة والتدبير الجريء وملاقاة العدو بجنان ثابت وعريكة لا تلين ولا تقبل الهزيمة ، وقبل الهجوم بعث برسالة لتوضيح مبررات هذا الهجوم ، إلى الشيخ محمد السنِّي أحد قادة الجهاد في تشاد ، يقول فيها : " هل تعلمون بأن في هذا البلد توجد مضايقات جمّة للمجاهدين ، حيث تمَّ احتلال المنطقة من الشرق ومن الغرب وهذا يضعف إيمان القبائل المحلية بديننا وهم يقومون بالهجرة نحو المناطق المحتلة من قِبل (المشركين) ومن المحتمل أن تدخل جميع القبائل المحلية تحت الرضوخ لمساعيهم المرتبة مسبقاً ، وبلغنا أن الفرنسيين يُعدُّون العدة للهجوم علينا ، لهذه الأسباب قررت الهجوم عليهم بأسرع وقت ممكن لكسب الوقت ، ولم أنتظر موافقتكم خوفاً من أن العدو يحشد قواته لمهاجمتنا وأن المجاهدين الذين يذهبون معي تسعون مجاهداً " (٩٠).

إن حرب العصابات التي اعتنقها المجاهدون بقيادة عبد الله الطوير جعلت القوات الفرنسية تعيش هاجس الخوف والرعب في كل لحظة تحسّباً لكر المجاهدين عليهم ، الأمر الذي جعل الفرنسيين يفشلون حتى في حماية من استظل بظلهم ، وتوفير القدر اللازم منها للعناصر التشادية الموالية لهم ، مما استدعى جلّ هذه العناصر لتعيد النظر ، بل وتشكك في قدرات القوات الفرنسية

على حمايتهم ،ولهذا قرّر الحاكم العسكري لإقليم تشاد التوجه على رأس قوة كبيرة لمهاجمة المجاهدين الليبيين في عقر دارهم ، واحتلال زاوية عين كلكة التي يقودها بمهارة قتالية عالية الشيخ عبد الله الطوير ، حدث ذلك يوم ٦ايلول ١٩٠٨، لكن القوات الفرنسية مُنيتْ بهزيمة شنعاء وفر جنودها ، وفي ١٩٠٩ أباد عبد الله الطوير في منطقة وشنكال في إقليم أنيدي كتيبةً كاملةً من الهجّانة (المهاريستا) الفرنسية وأسر عدداً كبيراً من النساء والأطفال الفرنسيين ، أُخذوا إلى دورعين كلكة[٩١].

وفي يوم ٢٧ تشرين الثاني ١٩٠٩ ،هاجم الشيخ عبد الله الطوير صحبة ٣٠٠ مجاهدا معسكراً فرنسياً يقوده الملازم موتو Moutot ، فما كان من خيار أمام الفرنسيين سوى الفرار ، تاركين معسكرهم وكل ما يوجد بداخله من جنود حيث تم أسرهم المجاهدون السنوسيون ، وقد بلغت خسائر الفرنسيين ٣٧ قتيلا و٤٣ جريحا من بينهم قائد المعسكر موتو، وقد سلبهم المجاهدون ٢٨ بندقية و ٤٠٠٠ إطلاقة وساقوا أمامهم المواشي والإبل ، بل وأخذوا خزينة المعسكر وأرشيفه ، وفي ٢٧ تشرين الثاني ١٩٠٩هاجمت مجموعة من المجاهدين بقيادة عبد الله الطوير معسكراً فرنسياً بالقرب من منطقة زقيي فأبادوه واستولوا على ٢٦ بندقية مع ٦٠٠٠ طلقة ، ونتيجةً للهزائم المتلاحقة التي مُنيتْ بها القوات الفرنسية على أيدي المجاهدين في مختلف المناطق ، كلَّفتْ الحكومة الفرنسية العقيد لارجو سنة ١٩١٠ بإدارة العمليات العسكرية في شمال تشاد – سُمّيت منطقة فايا فيما بعد بإسم فايا لارجو وتقع في إقليم تيبستي– والقضاء على حركة المقاومة السنوسية[٩٢].

إن مذكرات وتقارير الضباط الفرنسيين من الملازم ديفورDuffour و بيير فونتين و العقيد هيرمان والمقدم جوليان مليئة بأنباء هذا المقدام الذي أقضَّ مضاجعهم أينما حلَّ ، وكيفما كانت وسيلته في مقاومتهم . وكان هذا الرجل . الأسطورة يقود المجاهدين من نصر إلى نصر دون أن يتمكّن الفرنسيون من معرفة مكانه ولا حتى صفاته الشخصية ، وحتى عند استشهاده لم يتعرفوا عليه إلا عن طريق أشخاص آخرين من التشاديين الموالين لهم ، ليس هو فقط بل إن رفيقه في الجهاد والشهادة عبد الرحيم الدلاّلية كان يُعرف أيضاً باسم عبد الرحيم بوحليقة، وكانوا يضنونه شخصين وليس شخصاً واحداً ، وكذلك الشهيد محمد بوعريضة البرعصي الذي كان يُعرف عند الفرنسيين مرةً باسم سيدي باريد ومرةً باسم السيد عفيف ، وفيما يأتي نص رسالة الملازم ديفور إلى المقدم جوليان قائد دائرة وداي في أبشّة تحدث فيها عن عبد الله الطوير قائلا : " أتشرف بمراسلتكم وإبلاغكم بأنه تمت مهاجمتنا هذا الصباح وعلى تمام الساعة الرابعة فجراً من قِبل (سيدي) عبد الله الطوير ورجاله البالغ عددهم ثلاث مئة رجل ونيف ، ويرافقهم في هذا الهجوم كلٌّ من محمد السنِّي وبعض الجنود الأتراك والقرعان والتبو ، وفي أول التحام للعدو بنا استطاع أن يتقدم بعد اشتباكات عنيفة وقصيرة ، ولكن سرعان ما انقلبت الأمور لصالحنا وذلك نظراً لتحصن جنودنا بالخندق الذي

تم حفره استعداداً لهذا الهجوم وفق ما توافر لدينا من معلومات عنه مسبقاً ، واستطعنا إثر ذلك إبعادهم بعد تركهم عدد (٦٧) من موتاهم و(٦٣) بندقية و(٦)غدّارات من طراز ٩٠ والتي سُلبت منّا في معركة وشنكال ، كما تمَّ أثناء مطاردتنا للفلول الفارّة من العدو قتل أربعة رجال ، ومن المعتقد إثر هذا الهجوم أن (العدو) تكبّد عدداً كبيراً من الخسائر والجرحى . كنت عند وصول (سيدي) عبد الله الطوير ورجاله ضابطاً للخفر وتم عقب سماع دوي إطلاق النيران إطلاق صفّارات الإنذار تنبيهاً بوصولهم ، وجرت أحداث معركة مفاجئة وسريعة ، كما كان الجنود في أماكنهم"[٩٣] .

وفي ٢٦ شباط ١٩١١ وصل إلى منطقة عين كلكة ضابط تركي ومعه بعض الجنود المسلحين ، وبعد وصولهم سلم الضابط هدايا للشيخ عبد الله الطوير وابلغه بتعيينه من قبل الحكومة العثمانية كقائممقام لمنطقة برقو بكاملها ، وطلب منه رفع العلم التركي في تلك المنطقة ، لكن الشيخ عبد الله الطوير رفض هذا العرض ، وطلب منهم الذهاب إلى المناطق التي يتواجد فيها الفرنسيون وتطهيرها منهم ، ليتسنّى لهم رفع العلم التركي على المناطق المحرّرة ، بل طلب منهم مغادرة المنطقة ، لكنّ الشيخ قبِل بعد ذلك بهذا المنصب بناءً على أوامر قيادة المجاهدين في الكفرة لأسباب تكتيكية وسياسية ، ولإقحام الأتراك في محاربة الفرنسيين لمساعدة الليبيين في تشاد ، وهكذا تمَّ الاتفاق مع والي طرابلس بإرسال الرائد (رفقي) من مرزق ، وبرفقته مئة جندي ألباني مزودون بأسلحة مدفعية إلى منطقة برقو يوم ٨ تشرين الاول١٩١١ ، وبتولّي الشيخ عبد الله الطوير قائممقاميّة منطقة برقو أبرق العقيد (لارجو) لرؤسائه في باريس (برقية رسمية رقم ١٢٨) يقول فيها : " قائد كلكة عبد الله الطوير عدونا اللدود ، تم تعيينه ممثلاً للحكومة العثمانية " ويقر العقيد (لارجو) بذلك صراحةً ، حيث يقول في رسالة لقيادته في باريس : " إن (العدو) لا يرغب فقط في أخذ الإبل ولا يرغب في النهب ولكن يرغب في تدميرنا .. " إلى أن يقول : " وبعد الضربات المتوالية من قبل الليبيين حبطت عزائمنا وتقلصت هيبتنا خاصة بعد هزيمتنا في كلكة وواشنكال (وهي بقيادة عبد الله الطوير)" ولذلك تخلى الكثير من الأشخاص الذين كانوا تحت لوائنا وطاعتنا وانضموا (للعدو) ، وأن الأوضاع تغيرت من بدابة شهر السادس حيث أصبح الشيخ عبد الله الطوير هو المسئول الحقيقي في برقو ، ومنذ وصول هذه الزاوية لهذه المكانة الرفيعة في تلك الأصقاع ، وبروز أثرها الديني ما انفكّتْ الحملات الفرنسية توالي هجماتها لاقتحامها واحتلالها ، إلا أن الفشل المتكرر والإحباط الملازم لم يفارقا القوات الفرنسية ، فقامت بتصويب مدفعيتها الثقيلة صوب أشجار النخيل الممتدة من الزاوية إلى منطقة (فايا) ، وصبَّتْ نيرانها الكثيفة لحرق هذه الأشجار وإبادة المزروعات التي اشرف على زرعتها الشيخ عبد الله الطوير طمعاً في إجلاءه ورفاقه المجاهدين عن هذه الزاوية ، التي أصبحت شوكةً في حلق

الفرنسيين ، لكن المجاهدين وقائدَهم الطوير صمدوا أمام القوات الفرنسية على مدى يومين كاملين وبالتدبير المحكم الذي رسمه الشيخ عبد الله الطوير تجسّدتْ روائع المجاهدين السنوسيين وتمَّ سحق القوات الفرنسية ، وقُتل نصف قواتهم ، ومن بينهم أربعة من ضباط الحملة وفرَّ من بقي من القوات الفرنسية ، وفي مقدمتهم قائد المعركة . وقام المجاهدون بقيادة الشيخ عبد الله الطوير بمطاردتهم لإخراجهم من منطقة برقو التي تم تمشيطها وتطهيرها[٩٤] .

ومثلما كان عظيماً مهيباً في حياته كان كذلك في موته ، إذ تخيّر له القدر ميتةً مشرفة تليق به في ساحة الوغى حيث استشهد في منطقة أم العظام غرب فايا ، مات ليس في موقف المدافع عن نفسه ، المتحصن خلف أسوار محصنة ، بل وهو في موقف المهاجم المقدام الذي لا يهاب الموت، وأصيب بجُرح بليغ ، لكنه لم يرضَ أن يسقط في أيدي أعدائه ، بل فضّل أن يموت بعيداً عنهم ، وهكذا أسلم روحه على بعد كيلومترات قليلة عن المعسكر الذي هاجمه ، مات بين رفاقه المجاهدين، ولم يكد الفرنسيون يتعرفون على جثته حتى فرحوا لتخلّصهم من هذه الأسطورة السوداء التي شغلتهم ، وهكذا التحق المجاهد عبد الله فضيل الطوير بركب الشهداء في معركة أم العظام التي دارت بين المجاهدين السنوسيين والفرنسيين في ٢٣ أيار ١٩١٣[٩٥] وبعد استشهاده تمكنت القوات الفرنسية من احتلال زاوية عين كلكة في ١٧ تشرين الثاني ١٩١٣ ، وأعقب ذلك سقوط فايا بأيديهم في ٣ كانون الأول ١٩١٣ ثم سقوط قرو في ١٤ كانون الأول ١٩١٣ وبذلك سيطر الفرنسيون على معظم الأراضي التشادية بينما انسحبت القوات السنوسية المجاهدة إلى الكفرة.

وهناك مجاهد آخر من قبيلة الزوية قاد المقاومة السنوسية ضد الفرنسيين في منطقة تيبستي هو صالح بو كريم الزاوي الذي حارب عميل فرنسا هناك ميتونة وانتصر عليه وأسره في معركة ألتكو وحكم عليه بالإعدام لخيانته ، كما شارك صالح في عدة معارك ضد الفرنسيين خلال المدة ١٩١٠ – ١٩١٣[٩٦].

تولي المجاهد صالح بوكريم تنظيم وقيادة دور بسكرة بشمال تشاد الحالية وكان دوره يتكون من المجابرة والقذاذفة ورفلة وأولاد سليمان والقرعان ، وكان احمد الشريف قد افلح في اتصالاته مع سلطان وداي واقنعه برفض الاعتراف بفرنسا واحتلالها لمنطقة كانم وباقرمي ، وأعلن الجهاد ضد فرنسا في منطقة تيبستي ١٩٠٣ – ١٩٠٩، ولما كان قائد ألفلاته– وهي القبائل التي هاجرت من غرب إفريقيا مثل الفولاني والهوسا والبرنو والبرقو إلى دارفور ومناطق السودان الأخرى – المسمى ميتوته قام بمهاجمة سلطان تيبستي دود مرة لان الأول أصبح حليفا للفرنسيين ، لهذا استنجد سلطان تيبستي بالمجاهدين الليبيين الذين هبوا لنجدته بقيادة صالح بو كريم ، واستطاع الانتصار علي ميتوته والقبض عليه وأعدمه بتهمة الخيانة العظمي ومناصرة "العدو الكافر ضد المسلمين" وكان ذلك في معركة ألتكو، كما قاد صالح بوكريم معركة بسكرة ضد الفرنسيين وقد سقط فيها عدة

شهداء وساهم بقيادة المعارك ١٩١٠ – ١٩١٣ ضد الفرنسيين ، وكان صالح بوكريم بطل معركة الكوز فقيها ، وكان يؤم المسلمين في الكفرة بالصلاة ، وقد مارس التجارة ولفترة بسيطة واشرف علي حفر بئري السارة والبشارة ، وقاد لفترة طويلة حركة المقاومة في شمال تشاد في منطقة برقو، وجمع حوله العديد من القبائل الليبية والتشادية والطوارق وشكل بهم أدوارا في منطقة ويته ثم منطقة بسكرة ، وقد عمل على حرمان القوات الفرنسية من تموين القوافل فبني دوره في بسكرة الواقعة علي الطريق الذي يربط بنغازي بأبشة مرورا بالكفرة ، حيث غير هذا الاتجاه إلى الفاشر في سلطنة دار فور لحرمان القوات الفرنسية المتمركزة حول أبشة من التموين الأمر الذي جعلها تهاجمه ودارت بينه وبينهم عدة معارك استمرت من ١٩٠٠ إلى ١٩١٣ وفي نهاية الأمر أسر بوكريم واخذ إلي منطقة قريبة للحدود التشادية مع إفريقيا الوسطى ، وظل في الأسر من (٧ إلى ١٣سنة) ثم أطلق سراحه وعاد إلي الكفرة[٩٧]،ودافع عن وطنه مرة أخرى فاستشهد مع جيشه في معركة الكوز بين اجدابيا والكفرة بين السنوسيين وقوات الاحتلال الايطالي وهى معركة شهيرة جرت يوم ١٩كانون الثاني ١٩٣١واستمرت ثلاثة أيام تمكن الإيطاليون بعدها من احتلال الكفرة بعد معركة شارك فيها الطيران الحربي الإيطالي[٩٨].

الخلاصة :منذ احتلال فرنسا للجزائر صارت مقاومة هذا الاحتلال الشغل الشاغل لكثيرين من زعماء الطرق الصوفية وفي مقدمتها الطريقة السنوسية التي أسسها محمد على السنوسي في مكة سنة ١٨٣٧، ثم أخذت بالانتشار في الحجاز ومصر وشمال إفريقيا والصحراء الكبرى وجنوبها ، وأصبحت الزوايا السنوسية بمثابة مراكز ليس لنشر الإسلام وتعمير الأرض فقط بل مراكز للجهاد ومقاومة الاستعمار الأوربي الزاحف إلى بلدان المسلمين هناك .

انتهجت السنوسية إستراتيجية إثارة القبائل الجزائرية وتحشيدها ضد الاستعمار الفرنسي فساندت ثورة الشيخ محمد بن عبد الله ثم ثورة الشيخ بوعمامة ، ولما أدركت عدم تناسب ميزان القوى العسكرية بين القبائل الثائرة وقوات الاحتلال الفرنسي اذ كانت الحرب بين الطرفين تنتهي عادة في صالح المحتل ، لجأت إلى تغيير إستراتيجيتها بنقل المواجهة مع هذا المحتل من المناطق الواقعة شمال الصحراء إلى المناطق الواقعة إلى جنوبها لإطالة خطوط إمداد القوات الفرنسية ، كما غيرت أسلوب الحرب من الهجوم إلى الدفاع الثابت من خلال إقامة الزوايا السنوسية ونشرها على خطوط تقدم قوات الاحتلال في جنوب الصحراء ، وقد سجلت زاوية بئر العلالي في تشاد الخط الدفاعي الأول للحركة السنوسية وأثبتت قدرة فائقة في الصمود والتصدي للاستعمار الفرنسي الزاحف من غرب إفريقيا الوسطى لمدة سنوات متواصلة من الحرب .فقد تمكن الفرنسيون من احتلال تشاد بكاملها تدريجيا عقب سقوط مملكة رابح الزبير في غرب بحيرة تشاد سنة ١٩٠٠، فسقطت بعد ذلك زاوية بئر العلالي سنة ١٩٠٧، مما اجبر الحركة السنوسية على تغيير إستراتيجيتها مرة أخرى

وتحويلها من الدفاع الثابت إلى حرب العصابات وشن الهجمات الخاطفة ، ألا أن ذلك لم يمنع سقوط مناطق وداي وبعدها زاوية عين كلكة ثم فايا وأخيرا قرو بأيدي الفرنسيين ، وبعد احتلال قرو لم يكن إمام السنوسيين سوى الانسحاب إلى عاصمتهم الكفرة والتفرغ لمواجهة عدو أوربي استعماري أخر هو ايطاليا التي أخذت قواتها تزحف من شمال ليبيا نحو جنوبها ، وهي العدو الأكثر خطرا عليهم فانسحب معظم المجاهدين السنوسيين من مناطق تشاد إلى مناطق ليبيا الأخرى ، ولكن ذلك لا يعني توقف المقاومة السنوسية في مناطق جنوب الصحراء ، بل استمرت وتواصلت في تشاد ومالي والنيجر من خلال إسهامات الطوارق بصفحات الجهاد السنوسي ضد الفرنسيين ، فصارت الحركة تقاتل ثلاث دول أوربية عظمى في وقت واحد هي ايطاليا في ليبيا وفرنسا في الصحراء الكبرى وبريطانيا في الصحراء الغربية المصرية.

الهوامش والمصادر :

١- عميد أركان حرب محمد عبد الفتاح إبراهيم ، إفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا ، (القاهرة:مكتبة الانجلو مصرية ، ١٩٦١) ص٢٣؛ ن. أ . بروشين ، تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن التاسع عشر – مطلع القرن العشرين ، ترجمة الدكتور عماد حاتم ، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ،ط١ ، ١٩٩١) ص٣٢٤.

٢- الزاوية : وهي مكان كان يمارس فيه الدراويش وأصحاب الطرق الصوفية طقوسهم وشعائرهم الدينية فضلا عن التعليم وتدريس علوم الدين ، ثم تطورت الزوايا على أيدي قادة الحركة السنوسية حتى أصبحت مراكز دينية وتعليمية وعسكرية وثقافية وسياسية وقد امتدت حتى وصلت إلى تونس والجزائر وفاس وبرقة ومصر والحجاز واليمن والسودان وبرنو وتوات ثم وصلت إلى الهند وتركيا . الدكتور محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة ، مراجعة يوسف المجريسي،(أكسفورد: مركز الدراسات الليبية ، ٢٠٠٥) ص٨٨؛ محمود الشنيطي ، قضية ليبيا ،(القاهرة:مكتبة النهضة المصرية ،١٩٥١) ص٣٦؛ يقولا زيادة ، ليبيا في العصور الحديثة ، (القاهرة: دار الرائد للطباعة ، ١٩٦٦) ص٧٤-٧٥.

٣- تقول بعض المصادر إن هذا اللقب جاء نسبة إلى قبيلة بني سنوس من قبائل تلمسان وتعزى إلى جبل هناك يسمى اسنوس ، وبما إن نسبه الثابت هو علوي هاشمي كما ذكرنا سابقا لذلك فنحن نتحفظ على هذا الرأي، إذ تشير المصادر إلى إن احد أجداده المسمى إدريس الأكبر وهو أول خلفاء الدارسة في المغرب العربي وصل إلى هناك سنة ١٧٢هجرية ويعد إدريس هذا أول مؤسس للأسرة السنوسية التي اتخذت هذا اللقب ربما لتتقي شر مطاردة العباسيين لها .

٤- محمد الطيب بن إدريس الأشهب ، السنوسي الكبير – عرض وتحليل لدعامة حركة الإصلاح السنوسي (القاهرة : مطبعة محمد عاطف ، ط١، ١٩٥٦) ص٧ .

٥- مستغانم :مدينة جزائرية تقع على الساحل الشمالي الغربي وتطل على البحر المتوسط يعود تاريخها إلى عهد الرومان وكانت تسمى كاترينا ، في عام ١٥١٦خضعت للقائد البحري التركي خير بربروسا الذي اتخذها قاعدة لعملياته البحرية في البحر المتوسط وفي عام ١٧٠٠ أصبحت تحت السيطرة العثمانية حتى خضعت للاحتلال

الفرنسي عام ١٨٣٢ ،اشتهرت بزاويتها السنوسية المعروفة باسم تكوك بالعرعار قرب أولاد شافع ، وهي المدينة العربية الوحيدة التي يمر بها خط التوقيت الدولي (غرينتش). جريدة الشرق الأوسط الالكترونية ، العدد١٢٠٩٧ ، في ١١ كانون الثاني ٢٠١٢.

٦- هند عادل إسماعيل ألنعيمي ، إدريس السنوسي ودوره في استقلال ليبيا ١٨٩٠-١٩٥٢ ، رسالة ماجستير غير منشورة – كلية التربية / ابن رشد ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٩ ،ص ١٠ -١٢ .

٧- زاوية أبي قبيس : نسبة إلى جبل أبي قبيس الذي يقع في الجهة الشرقية للمسجد الحرام بمكة ويبلغ ارتفاعه ٤٢٠ مترا وجاء في الحديث الشريف انه أول جبل خلقه الله في الأرض ومنه مدت الجبال الأخرى ، وان الله وضع عليه الحجر الأسود خلال طوفان نوح ليحفظه ، وعليه نصب الحجاج بن يوسف المنجنيقات لضرب الكعبة الشريفة التي تحصن فيها عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هجرية في عهد عبد الملك بن مروان ، وأسس فيه محمد بن علي السنوسي أول زاوية للحركة السنوسية سنة ١٢٤٢ هجرية ، وتولى مشيختها عبد الله التواتي وحامد غانم المكاوي وعلي حامد والشارف حامد والصادق السنوسي حامد . ينظر الموسوعة الحرة ويكيبيديا

٨- احمد صدقي الدجاني ، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر ، ١٢٠٢ – ١٣٠٢ هجرية ، (طرابلس الغرب : ١٩٨٨) ص٧٨.

٩- نقولازيادة، برقة الدولة العربية الثامنة،(بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٠) ص٥٩.

١٠- نقولا زيادة ، ليبيا في العصور الحديثة ، (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٦) ص٦٧.

١١- الجغبوب بلدة ليبية جنوب شرق مدينة طبرق بحوالي ٢٨٦ كم وتتبعها إدارياً. تتميز الجغبوب بوجود بعض البحيرات ، كما تعد مركزا دينيا وسياحيا متنوع.تأسست الجغبوب في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر كمركز ديني، وهي ذات تاريخ عريق في نشر الإسلام، وقد تعلم بها كثير من المجاهدين الليبيين على رأسهم أحمد الشريف وعمر المختار . كانت مركزا دعويا هاما للحركة الإصلاحية التي أسسها محمد بن علي السنوسي . الموسوعة الحرة ويكيبيديا

١٢- نقولا زيادة ، برقة الدولة العربية الثامنة ،(بيروت : دار العلم للملايين ،١٩٥٠) ص٦٠-٦١ .

١٣- غات مدينة تقع في صحراء الليبية الغربية على مشارف الحدود الليبية – الجزائرية، وتتبع المدينة بلدية غات وهي عاصمتها وبها مطار للرحلات الداخلية. سكان المدينة من الطوارق،بعضهم أمازيغ ويتكلمون الأمازيغية نطقا وكتابة بواسطة حروف التيفيناغ، أو الليبية القديمة، والبعض الآخر يتحدثون العربية وقليل منهم يتحدثون بلغة الهوسا لأن أصولهم تنحدر من نيجيريا، وهي مسماة على اسم ولي صالح وهو غوث حيث كان يسكن المدينة وعندما مات سميت المدينة باسمه، ولا يزال قبره في المدينة القديمة بغات.في المدينة قلعة تركية قديمة، وهي محاطة بجبال أكاكوس من الناحية الشرقية وبها عدد من القرى التابعة لها . كانت المدينة قديما طريقا للقوافل التجارية وكانت مرتبطة بمدينة تمبكتو الواقعة في قلب الصحراء الكبرى ارتباطا وثيقا .للتفاصيل نجمي رجب ضياف ، مدينة غات وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر الميلادي ،(بنغازي : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩).

١٤- غدامس مدينة ليبية تقع على المثلث الحدودي بين ليبيا وتونس والجزائر في الجزء الغربي من البلاد ، وترتفع عن مستوى سطح البحر ٣٥٧ مترا. وتبعد ٥٤٣ كيلومترً جنوب غرب العاصمة طرابلس،وغدامس هي واحة نخيل،

وتعد من أشهر المدن على خط التجارة بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى ولها علاقة تاريخية مزدهرة في التجارة مع تمبكتو في مالي، وقد كانت غدامس قديماً واحدة من أشهر المدن الأفريقية الشمالية التي لعبت دورا تجارياً مهماً بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى بكونها محطة للقوافل، ودخل الإسلام غدامس سنة ٤٤ هجرية على يد عقبة بن نافع الفهري .وكانت الديانة المسيحية واليهودية هي السائدة قبل الإسلام. للتفاصيل ينظر: بشير قاسم يوشع ، غدامس ملامح وصور ، (بيروت:دار لبنان للطباعة والنشر ،١٩٧٣).

١٥– الكفرة :تقع في الركن الجنوبي الشرقي من ليبيا مدينة صغيرة وهي عبارة عن واحة فقيرة وكانت تحمل حتى مجيء القبائل العربية إليها اسم تازر وهو اسم لأحد شيوخ قبيلة التبو التي تقطنها منذ قديم الزمان، وسكانها منحدرون من قبائل الزوي والمجابرة، يعتمدون على ما ينتجونه من التمور وعلى التجارة المتواضعة مع دارفور وأقاليم تشاد الموازية، ولكن المواشي السودانية التي تمر عبر مدينتهم في طريقها إلى مدن اجدابيا وبنغازي هي مصدر حياة مهم بالنسبة لهم، لذلك ظلت المدينة على الدوام تشكل المدخل لأي "علاقة طبيعية" تربط ليبيا والسودان.جريدة الرياض الالكترونية ، العدد١٤٤٤٠ في ٦ كانون الثاني ٢٠٠٨.لمزيد من التفاصيل ينظر : د. عماد غانم ، رحلة إلى الكفرة – تقارير الرحالة الألماني غيرها رد رولفس عن رحلته من طرابلس إلى الكفرة ، (بنغازي : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ٢٠٠٠) .

١٦– محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، مراجعة يوسف المجريسي ،(أكسفورد :مركز الدراسات الليبية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥) ص١٠٨.

١٧– التبو: مجموعة من القبائل البدوية تسكن جنوب ليبيا وشمال النيجر وشمال تشاد، وقد اختلف المؤرخون في تحديد أصولهم، فقال بعضهم بأنهم يرجعون إلى قبائل التمحو الليبية القديمة، وذهب البعض الآخر إلى أنهم قبائل الجرمنت، وهي قبائل ليبية كانت تسكن جنوب ليبيا قرب مدينة أوباري، ويقول آخرون أنهم من قبائل ليبية قديمة تسمى التيبوس كانت تسكن شمال ليبيا في المناطق الممتدة بين الجغبوب وإجدابيا، وكانت عاصمتهم تازربو ،وهم من القبائل الليبية القديمة التي كانت تقطن ليبيا قبل الفتوحات الإسلامية، ولكن مع الفتوحات الإسلامية نزح التبو إلى الجنوب، وبالتحديد إلى مناطق الكفرة وربيانة، وآخرون نزحوا إلى منطقة جبال تيبستي شمال تشاد وواحات فزان وقلة منهم نزحوا مناطق كاوار واغدس أو اقدز في النيجر،والى تيبستي شمال تشاد وكلهم مسلمون، والتبو قومية ولهم لغة خاصة بهم ، وقد قاوموا الاستعمار الإيطالي في ليبيا والفرنسي في تشاد والنيجر، ، وأشهر قبائلها هي :التيدا :يعيشون بين ليبيا وتشاد والنيجر ويتحدثون لغة التيدا، أماالدازايسكنون شمال تشاد والسودان ، ونسبة كبيرة منهم يعمل في التجارة، ومنهم القرعان والانكزة تقطن منطقة فايا وينحدر منها الرئيس السابق حسين هبري، والكريدا المجموعة الأكثر من الناحية العددية ، وهم ينتشرون بشكل رئيسي في بحر الغزال الحاضرة منها والبادية والكريدا قبيلة كبيرة بحدة ذاتها ولها انتشار واسع في كثير من الدول الإفريقية الصومال على سبيل المثال ويطلق عليهم باللهجة الصومالية المحلية (قرع) وهم رعاة بقر وأبل وأيضا توجد هذه القبيلة في الحبشة وإرتيريا والسودان وجميعهم متشابهون من حيث البداوة وهي السمة الغالبة عليهم ومن حيث الاشتغال بالرعي والفروسية. والكونما، وهذه القبيلة تقطن منطقة ماو التاريخية ونوكوnouku وزقيبيzigey و رقرق rig rig ومشاميرا وما حولها،وفي أنحاء الكانم التي اطلق اسمها عليهم.ينظر : الموسوعة الحرة ويكيبيديا وكذلك: www.tawalt.com.؛ د. سعيد الحنديري ، المرجع السابق ، ص٢٤.

١٨– الطوارق هم الشعب الذي يستوطن الصحراء الكبرى، في جنوب الجزائر، وأزواد شمال مالي، وشمال النيجر، وجنوب غرب ليبيا، وشمال بوركينا فاسو. والطوارق مسلمون مالكيون، ويتحدثون اللغة الطارقية بلهجاتها الثلاث تماجق وتماشق وتماهق. والأمازيغ والطوارق على وجه الخصوص هم أخلاف الجرمنتيين الذين استوطنوا الصحراءالكبرى جنوب ليبيا وجنوب الجزائر منذ آلاف السنين، وأما نسب الطوارق من الأمازيغ فهو إلى صنهاجة ، واللغة الطارقية هي الوحيدة من بين اللهجات الأمازيغية التي حافظت على جذور الأمازيغية ، والطوارق هم الشعب الأمازيغي الوحيد الذي حافظ على أبجدية التيفيناغ ، وكان للطوارق دور في نشر الإسلام عندما أسسوا مملكة أودغست الإسلامية في القرن الثالث الهجري، ومن بعدها دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري وعندما أسسوا مدينة تمبكتو التاريخية غدت من أكبر مراكز الإشعاع الحضاري والديني، ومركزا فريدا من مراكز التجارة في المنطقة بأسرها ، لم تسيطر أي قوة خارجية على موطن الطوارق قبل الاستعمار الفرنسي ، غير أن قبائل الطوارق منفردة أظهرت قدرات تنظيم ومهارات عسكرية فائقة في إلحاق الهزيمة بالحملات العسكرية الفرنسية التي غزت أراضيهم خلال القرن التاسع عشر، وبالرغم من أن الفرنسيين احتلوا مدينة الجزائر عام ١٨٣٠ م، فإنهم لم يتمكنوا قبل ١٩٠٢ م من إلحاق هزيمة عسكرية مهمة بقبائل الطوارق، ولم يتمكن الفرنسيون حتى العشرينات من القرن الماضي من السيطرة الكاملة على المناطق الصحراوية ، ومنذ استقلال الدول التي يتواجد فيها الطوارق وخصوصا دولتي مالي والنيجر قام الطوارق فيهما بثورات عديدة بسبب الظلم والتهميش الذي عانوا منه، حيث قام الطوارق في شمال مالي (أزواد) بثورة كيدال ١٩٦٢ م، وثورة ١٩٩٠ م – ١٩٩٦ م، وفي عام ٢٠١٢ م كانت الثورة الأخيرة حيث تمكنت الحركة الوطنية لتحرير أزواد التي أسسها الطوارق من تحرير إقليم أزواد وإعلان استقلاله ولكن لم تحظ الدولة الوليدة بالاعتراف الدولي.الموسوعة الحرة ويكيبيديا

١٩– قبيلة جرار أو جراره ذكر إسماعيل كمالي أنهم يرجعون في نسبهم إلى المحاميد في جبل نفوسه الذين ينتسبون إلى بني ذبَاب من قبيلة بني سليم ،أما قبيلة جرارة التي تسكن منطقة ركاده بالمغرب فتتباين الروايات وتختلف آراء الدارسين و المهتمين بالأنساب حول نسب بني معقل الذي تنحدر منهم قبيلة أولاد جرار ، فالقبيلة حسب بعض المؤرخين تنتسب إلى محمد بن معقل بن عقيل بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن هاشم ، انتشرت بشمال إفريقيا في إطار الفتوحات الإسلامية التي عرفتها المنطقة خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري .تبقى صحة هذا النسب الشريف من الصعب تأكيدها أو نفيها ، ويسكن جزء كبير من آل جرار في طبرق بليبيا وقد هاجر بعضهم في فترة الجهاد ضد الايطاليين إلى مصر واستوطنوها ، إسماعيل كمالي ، سكان طرابلس الغرب ، تعريب حسن الهادي بن يونس ، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٩٧) ص٢٣، ص٥٤ ؛ محمد مبشور ، أولاد جرار النسب والاستقرار، مقال منشور بتاريخ ١٥ مارس ٢٠١٣ على موقع الجراري jerrari.blogspot.com

٢٠– أولاد الحاج : لم نعثر على معلومات كافية ودقيقة عنهم في المصادر المتاحة لنا ، وهي قبيلة عربية النسب ورد اسمها في أماكن متعددة من بلدان المغرب العربي ولا نعلم إن كانت قبيلة واحدة أو قبائل مختلفة تحمل الاسم نفسه ، وورد في كتاب إسماعيل كمالي "سكان طرابلس الغرب" بان نسبهم يرجع إلى الكعوب من بني يحيى من بني عوف وهم فرع من قبيلة بني سليم سكن بعضهم في يفرن ومنهم أولاد عيسى وفي ورفله وفي الاصابعة في جبل نفوسة . إسماعيل كمالي ، سكان طرابلس الغرب ، تعريب حسن الهادي بن يونس ، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٩٧) ص٢٣، ص٥٢.

٢١– آير أو بلاد العير ، إقليم جبلي في الصحراء الكبرى عرف بوجود منجم للنحاس فيه، وينقسم سكانه إلى قسمين أساسيين هما السود والطوارق ،وهي عقدة مواصلات مهمة تلتقي فيها الطرق القادمة من غدامس وغات وفزان في ليبيا والطرق القادمة من سجلماسة بالمغرب إلى توات في الجزائر ومنه إلى كانو وبلاد الهوسا، كما أنها تق على طريق الحج الذي يربط السودان الغربي بتمبكتو إلى تكدا إلى آير إلى غات وفزان ثم القاهرة ولذلك سيطر عليها الاسكيا محمد الكبير سلطان مملكة السنغي عام ١٥١٥ إذ كان يعتصم بها أبو بكر بن سني علي مع أنصاره الذين كانوا قليلين جدا حيث تمكن جيش سنغاي من اقتحامها وتدمير مقر أبو بكر بن سني علي وطرد سكانها الطوارق واحل محلهم ناس من مملكة السنغي أتباعه،جميلة امحمد التكيتك ، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الاسكيا محمد الكبير ١٤٩٣ – ١٥٢٨ ، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ١٩٩٨) ص٦٥– ٦٦. علي محمد الصلابي ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ ؛ الدكتور خالد علي عبد القادر ، انتشار الإسلام في إمارات الهوسا بالنيجر ونيجيريا ، (القاهرة : دار الفكر العربي ، ٢٠١٤) ص٢٤٦.

٢٢– برقو: من المدن المعروفة كمحطة تجارية على طرق القوافل التي تربط مناطق جنوب الصحراء الكبرى بمدن البحر المتوسط في طرابلس وبنغازي وتقع شرق بحيرة تشاد في إقليم تيبسني الشمالي

٢٣– أولاد سليمان : قبيلة مركزها منطقة هوارة على خليج سرت انتشرت في غرب بحيرة تشاد وفي منطقة صحراء تاوديني شمال تمبكتو ، وفي فزان والجفرة وودان وهي مواطنهم حتى اليوم، فهم عرب من سلالة دباب جذم من بني سليم ، وقد اشتهروا بالغزو وعدم الخضوع للسلطة ، عرفتهذه القبيلة بتمردها ضد السيادة العثمانية وقد استطاع أولاد سليمان بمساعدة المحاميد في أوائل القرن الثامن عشر الاستقرار بمنطقة سرت وحكمها، وأسفر استقرار أولاد سليمان بسرت في منتصف الطريق بين طرابلس وبرقة عن دخولهم في صدام مع القرمانليين، وكان من أشهر تلك الصدامات ما حدث في سنة ١٨٠٦ وأدى إلى مقتل أحمد سيف النصر شيخ أولاد سليمان وعدد من أبناء قبيلته وهجرة جزء منهم ليعودوا بعد ذلك ويحدثوا مزيدا من القلاقل للدولة العثمانية، ثم ما حدث بعد تولي عبد الجليل سيف النصر مشيخة أولاد سليمان في سنة ١٨٣٢م في أواخر حكم يوسف باشا القرمانلي وتصادمه معه، وتواصل هذا الصدام مع العثمانية بعد عودة ليبيا إلى الحكم العثماني، والذي أدى إلى مقتل عبد الجليل سيف النصر في سنة ١٨٤٢ مع عدد من أفراد قبيلته وأحد أطفاله إضافة لشقيقه سيف النصر وثلاثة من أطفاله أيضا.وعرف أولاد سليمان بكثرة تحركهم وثوراتهم في المنطقة الممتدة من مسلاته غربا وحتى اجدابيا شرقا ومن سرت شمالا وحتى أقاصي جنوب ليبيا. و اصطدم أولاد سليمان بالغزو الإيطالي خاضوا ضده حربا دامت لعشرين عاما اتسمت بطابع الكر والفر إلا أنهم بعد هزيمة (واو الكبير ١٩٢٩) اضطروا للجوء إلى تشاد ومصر،وزحف أولاد سليمان منذ بداية الحرب العالمية الثانية متحالفين مع قوات فرنسا الحرة على جنوب ليبيا قادمين من تشاد حيث أعلن شيخهم حمد بن سيف النصر سيف النصر حاكما على فزان، واليوم يقيم أولاد سليمان في مناطق سرت وفزان ويتكونون من : الشريدات والمايسة والزكاري والهيوات والجبابر ، كما تقيم عوائل من أولاد سليمان بكانم بتشاد والنيجر ومصر وتونسو ترجع إلى أولاد سليمان الكثير من القبائل المنتشرة في أنحاء ليبيا كالزوايد بالخمس والخرجة بتونس، ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

٢٤–كانم : إمبراطورية كانم الإسلامية (٨٠٠–١٩٠٠) وكانت تمتد بين تشاد ونيجيريا وليبيا ونظرا لامتدادها فقد شملت منطقة لا تغطي معظم تشاد فقط، ولكن تغطي أيضا أجزاء من جنوب ليبيا(فزان) وشرق النيجر وشمال شرق نيجيريا وشمال الكاميرون، اشتهرت بكثرة ما خلفته للمكتبة العربية من مصنفات في شتّى فنون العلوم الإسلامية. ارتبطت علاقاتها بكلّ من مصر وشمالي أفريقيا ووصلت شهرتها وعظمتها إلى أوربّا منذ العصور

الوسطى .وتُعد اللغة العربية لغة التعليم ولغة المملكة الرسمية فضلاً عن كونها لغة المعاملات التجارية.أسستها سنة ٧٠٠م قبيلة بدوية من التبو سميت الزغاوة أجبرت على النزوح إلى الجنوب الغربي باتجاه الأراضي الخصبة حول بحيرة تشاد ، ووقعت كانم في الطرف الجنوبي من طريق التجارة الصحراوي بين طرابلس ومنطقة بحيرة تشاد. وفي نهاية الأمر تخلت الكانمبو عن أسلوب حياتها البدوية، وأسست عاصمة في عام ٧٠٠ م تقريبًا تحت حكم أول ملك شرعي "ماي" من ملوك الكانمبو المعروف باسم سيف سياف. والعاصمة نيجمي تعني "الجنوب" في لغة الكانمبو ، وكان يُنظر إلى كل ملك (ماي) من ملوك دوجووا على أنهم ملوك إلهيين وينتمون إلى مؤسسة الحكم المعروفة باسم ماجومي.ينظر: جوزيف كي زيربو، المرجع السابق ، القسم الأول ، ص٢٥٥–٢٦٠.

٢٥–شميدروا : قرية صغيرة في وادي كاوار في تيبستي شمال تشاد تعد إحدى المحطات الواقعة على طريق طرابلس – برنو الذي يمر بواحة يات أو (بهيجة) – واحة يجبا – واحة كاوار وهي في منتصف المسافة بين مرزق وبرنو وفيها مقر لأمير منطقة كاوار ، وبعدها يمر الطريق بواحة بلما المشهورة بملحتها وفيها يتفرق طريق طرابلس إلى ثلاثة اتجاهات حيث يسير جنوبا باتجاه برنو ، وشرقا باتجاه دارفور ، ثم غربا إلى بلاد الآير وغات .ينظر : رجب نصير الأبيض ، مدينة مرزق وطرق القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر ،(طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ١٩٩٨) ، ص٢١٦.

٢٦–التيدا : تنقسم قبيلة التبو إلى التيدا والدازا .وهم على قناعة باشتراكهم في أصل واحد، ولكنهم يتحدثون الآن لهجتين مختلفتين،تيداجا (تيدا تبو) ودازاجا (دازا تبو) وهم عبارة عن بدو رحل يسكنون جنوب ليبيا وبالتحديد في القطرون وتجرهي ومرزق وأوباري وكفرة وربيانة وكذلك شمال تشاد في منطقة تيبستي التي تضم هضبة انيدي وجبال برداي في منطقة كاوار،ومن الشخصيات المشهورة من التبو التيدا: الشيخ مينا صالح من الشيوخ الأقوياء في القطرون، قاوم المستعمر الإيطالي ورفض الرضوخ لهم حتى استشهد على يد المستعمرين تحت قلعة القاهرة بمدينة سبها. وكذلك عثمان كولي: وهو مجاهد معروف بصلابته وشجاعته في مقاومة الاستعمار الفرنسي في النيجر، واستشهد أثناء مقاومته لوحده سرية فرنسية كاملة.ينظر موقع المعرفة www.marefa.org

٢٧–محمد فؤاد شكري ،المرجع السابق ،ص ١٠٩–١١٠.

٢٨–ذكر البعض أن كلمة وداي نسبة إلى عبد الكريم بن وداعة، مؤسس المملكة، وقيل كانت تعرف ب (دار مابا) ثم أبدلت بهذا الاسم (وداي). وقيل أنها مأخوذة من وضوء الصلاة الذي يكثر الوداويون النطق بها أثناء تعليمهم الناس الإسلام آنذاك. وقيل أن كلمة (وداي) مأخوذة من كثرة الوديان الموجودة في البلاد، ولعل الراجح نسبتها إلى (وداعة) مؤسس المملكة. وتسمى أيضا بلاد الموبا .تقع مملكة وداي شرق مملكة كانم – برنو وغرب دارفور في أقصى الشرق وعاصمتها مدينة أبشة، ويرجع تاريخ هذه المملكة إلى عام ١٦١٥ م،حيث أسستها أسرة توندجور التي كانت من مولدي العرب والزنوج نزحت من دارفور وكانت تدين بالديانة الإحيائية ألا أنها أخذت تتحول نحو الإسلام ، في القرن التاسع عشر أخذت تتوسع نحو الغرب على حساب مملكة كانم ونقلت عاصمتها من وارا إلى أبشه بعد وصول الدعاة المسلمين إليها.انظر: جوزيف كي زيربو ، تاريخ إفريقيا السوداء ، القسم الأول ،ترجمة يوسف شلب الشام ،(دمشق: وزارة الثقافة ، ١٩٩٤) ص٥٠٢– ٥٠٣ ؛موسى يوسف عيسى إدريس ، تشاد الماضي والحاضر، بحث منشور بتاريخ ٢٠١٣/١١/٢٨ على موقع الالوكة www.alukah.net.

٢٩–تمبكتو: وتكتب في كثير من المصادر تنبكتو أو تمبكت أو تنبكت، وتقع في شمال مالي عند الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ، وعلى بعد اثني عشر ميلا من فرع نهر النيجر وجعل منها هذا الموقع محطة تجارية مهمة لطرق القوافل بين بلدان شمال إفريقيا والسودان الغربي ، وقد نشأت تنبكتو في القرن الحادي عشر الميلادي من قبل

قبائل طوارق ايماغراشن ، ويقال إن اسمها اشتق من اسم امرأة عجوز كانت تسكن هذا المكان قبل نشوء المدينة ، حيث كان الرحالة ينزلون حول بيتها فتساعدهم ويساعدونها وتحرس لهم بعض متاعهم فلما نشأت المدينة اخذ اسمها يطلق على المدينة كلها ، واصل الكلمة طوارقي وهي تين بكتو وتعني مكان بكتو ، وبمرور الوقت تحول المكان إلى سوق للتبادل التجاري بين تجار الشمال والجنوب واستمرت تنبكتو بالنمو والاتساع حتى تحولت إلى بلدة صغيرة وأصبحت بعد ذلك محطة مهمة لطرق القوافل ، وكان الذهب والملح وتجارة الكتب والمخطوطات من أهم السلع التي يتم تبادلها أو شرائها في تنبكتو حتى أصبح لها ميناء خاص بها على نهر النيجر هو ميناء كابارا. انظر : جميلة امحمد التكيتك ، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الاسكيا محمد الكبير١٤٩٣ – ١٥٢٨ ،(طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ط١ ، ١٩٩٨) ص١٢٠– ١٢٣.

٣٠– محمد فؤاد شكري ،المرجع السابق ، ص١١١.

٣١– المرجع نفسه ، ص ١٠٢– ١٠٣.

٣٢– محمد الطيب بن إدريس الاشهب ، المرجع السابق ،ص١٦.

٣٣– محمد فؤاد شكري ،المرجع السابق ، ص٥٨–٦٩.

٣٤– المرجع نفسه ، ص٢٣.

٣٥– المرجع نفسه ،ص٧٥–٧٦.

٣٦– المرجع نفسه ، ص ٣٣–٤١ ؛ انظر أيضا : منتديات الشروق اونلاين http://montada.echoroukonline.com/showthread.

٣٧– محمد الطيب الاشهب ،المرجع السابق ، ص٨٠.

٣٨– الغسول : نسبة إلى غاسل بن خراج بن عبد الله الذي ينتسب إلى قبيلة معقلية أو نسبة إلى معقل ربيعة بن الحارث بن كعب بن جلد بن مذحج من القبائل القحطانية اليمنية التي هاجرت من اليمن واستوطنت شمال إفريقيا سيما في مدينة الرمشي بجوار قبيلة زغبه في تلمسان ثم المغرب وباتجاه المحيط الأطلسي .ينظر : موقع أهل الحديث www.ahlalhdeeth.com

٣٩– محمد الطيب الاشهب ،المرجع السابق ، ص٨٠–٨١.

٤٠– اخذ يتنقل بين تونس والجزائر إلى أن ألقي عليه القبض بمساعدة الباشا آغا سي بوبكر ولد حمزة، ويجهل المدة التي أمضاها فيالسجن ، وشارك في ثورة أولاد سيدي الشيخ عام ١٨٦٤ كما شارك في ثورة محمد المقراني عام ١٨٧١ لجأ بعدها إلى تونس ،وبعد احتلالها عام ١٨٨١ غادر بن عبد الله إلى طرابلس مدة ثم عاد إلى الجنوب التونسي إلى أن توفي عام ١٨٩٥ . شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) ، الموسوعة الحرة ويكيبديا، متاح في ٢٠١٥/١١/١٥

٤١– المرجع نفسه ؛ موقع ستار تايمز www.startimes.com

٤٢– محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ،ص ٩٥.

٤٣– للتفاصيل عن ثورة بوعمامة راجع :موقع منتديات الجلفةhttp://www.djelfa.info

٤٤– ينظر : منتدى سيدي الشيخhttp://sidicheikh.yoo7.com

٤٥– علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، ج٢ (الإسكندرية: دار الإيمان ، د . ت)ص٢٣ .

٤٦– ئي .آ.ف. دي كاندول ، الملك إدريس عاهل ليبيا حياته وعصره ، تعريب ونشر محمد بن غلبون (مانشستر: ١٩٨٩) ص٨.

٤٧– رحلة إلى الكفرة تقارير الرحالة الألماني غيرهارد رولفس ، دراسة وترجمة د. عماد الدين غانم ، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ٢٠٠٠) ص٤٦٢ .

٤٨– الطيب الاشهب ، المرجع السابق ، ص١١٠ .

٤٩– علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية ...، ص١٧٦ ؛مقال بعنوان " عبد الله الفضيل طوير الزوي" منشور على الموقع الالكتروني :biladuna.blogspot.com

٥٠– محمود الشنيطي ، قضية ليبيا ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١) ص٤٠–٤١ .؛ بروشين ، المرجع السابق ، ص ٣٧٨؛ محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص١٢٦ .

٥١– هند عادل إسماعيل ألنعيمي ، المرجع السابق ، ص٣٥–٣٦ .

المرجع نفسه، ص٣٢.

٥٢– المرجع نفسه ، ص١٢٩.

٥٣– المرجع نفسه، ص١٤٨.

٥٤– برقو : أو بركو تقع في إقليم تيبستي شمال تشاد حاليا وكانت محطة تجارية مهمة على طرق القوافل بين مناطق وداي والموانئ الليبية.

٥٥– محمد فؤاد شكري ،المصدر السابق ، ص ١٤٩.

٥٦– قرو: تقع في برقو في تشاد الحالية جنوب الكفرة وقد بعث محمد المهدي عندما كان مقيما في الجغبوب ، الشيخ محمد بن عقيلة الزوي لتأسيس زاوية فيها .

٥٧– الدكتور علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا،(بيروت:دار المعرفة ،ط١ ،٢٠٠٥) ص٢٠٨.

٥٨– المرجع نفسه ، ص٢٠٨–٢٠٩.

٥٩– الشيخ عبد الله الفضيل بومرزوق الملقب (اطوير). من قبيلة الزوية ، وُلد قي الكفرة تقريبا سنة ١٨٦٠ ،ومن المرجَّح أنه تلقّى تعليمه الأوَّلي في كتّاب القبيلة،ثم شدَّ الرحال صوب الجغبوب ومدرستها الشهيرة ، التي آوت إليها الكثير من أقطاب الجهاد والفقه آنذاك ، وكان من زملائه على مقاعد الدرس بالجغبوب الشيخ الشهيد عمر المختار، وبعد انتقال الولاية للسيد المهدي السنوسي ، رأى أن ينتقل من الجغبوب إلى الكفرة ، حيث أسَّس زاوية(التاج)الشهيرة هناك ، فانتقل الشيخ عبد الله طوير مع مَن انتقل إلى واحة الكفرة ، موئل قبيلته الزوية وكان هناك إمام مسجد . ثم رافق الشيخ المهدى السنوسى إلى قرو سنة ١٨٩٩م تم تكليفه في رحلة استطلاعية مع الشيخ عمر المختار إلى منطقة عين كلكة حيث تزوج هناك بنت شيخ قبيلة ككرى بعين كلكة و فتح هناك زاوية كلكة استشهد سنة ١٩١٣ . ينظر المقال المنشور على الموقع الالكتروني: biladuna.blogspot.com

٦٠– محمد الطيب بن إدريس الاشهب ،السنوسي الكبير ،(القاهرة : مطبعة محمد عاطف ،د.ت.) ص٤٠–٤١.

٦١– نقولا زيادة ، برقة الدولة العربية الثامنة ، (بيروت: دار العلم للملايين،١٩٥٠) ص٦٣.

٦٢– محمد القشاط ، جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى ، (د.م. : ١٩٨٨) ص٢٢٧. علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية ...، ص٢٣٠.

٦٣- قبيلة الزوية والمجابرة من قبائل المرابطين العربية الأصل في غرب برقة وينسب البعض قبيلة الزوية إلى الحساونه في فزان جنوب ليبيا وشاركت في مقاومة التغلغل الفرنسي في تشاد ، أما المجابرة فهم القبائل التي استوطنت في واحة جالو التي كانت محطة مهمة على طريق القوافل التجارية بين سواحل ليبيا وتشاد .وخلال الحملة الايطالي التي قادها غراتسياني على المقاومة الليبية كانت هاتان القبيلتان من بين القبائل الليبية الكثيرة التي نزحت إلى تشاد .سعيد الحنديري ، المرجع السابق ، ص ٢١، ص٥١.

٦٤- التنجرأو التنجور إحدى القبائل العربية التي استولت على الحكم في إقليم دارفور في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي واستمر حكمهم إلى النصف الأول من القرن الخامس عشر وينسبون إلى قبيلة بني هلال والبعض ينسبونهم إلى النوبيين ويرجعهم البعض الآخر إلى قبائل الفور ، وقد بسطوا نفوذهم على إقليم دارفور بأكمله بعد زوال حكم الداجو في الجنوب ، وكانت عاصمتهم مدينة اروي في الجبل الذي يحمل الاسم نفسه ، وكانت مدينة مزدهرة اشتهرت بتجارتها وعلاقاتها مع الحجاز ومصر والدولة العثمانية ألا أن هذه المملكة ما لبثت إن ضعفت وسقطت على أيدي الفور سنة ١٤٤٥م.

٦٥- سعيد الحنديري ، المرجع السابق ، ص٥١ .

٦٦- المرجع نفسه .

٦٧- محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص١٥٢.

٦٨- علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية ... ، ص ٢٠٩- ٢١٠ .

٦٩- موقع مجلة المساء الالكترونية www.el-massa.com

٧٠- علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية ... ، ص٢١٥ – ٢١٧ .

٧١- سعيد الحنديري ، المرجع ، السابق ، ص٥١- ٥٢ .

٧٢- محمد آدم دوتوم ، الاستعمار الفرنسي والمسألة الإسلامية في تشاد ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، نسخة مخطوطة مترجمة عن اللغة الفرنسية محفوظة في مكتبة مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية في طرابلس ، ص ٣٠ ؛ محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص ١٥٠-١٥٢.

٧٣- سعيد الحنديري ، المرجع السابق ، ص٥٢-٥٣.

٧٤- العقيد تسمية عربية وهو منصب إداري يشابه منصب رئيس الحي أو المختار أو رئيس العشيرة ، والعقيد هو عضو في مجلس أصحاب الشورى الذي يساعد سلطان وداي في تقديم المشورة والنصح كما يقوم المجلس في إدارة شؤون البلاد في أوقات الحرب والسلم والإشراف على مراسيم تولي السلاطين الجدد ، كما يشارك العقيد في الحرب ومن واجباته قيادة الجيوش وتزويد السلطان بالمحاربين . سعيد الحنديري ، المرجع السابق ، ص ٤٠.

٧٥- محمد سعيد الحنديري ، المرجع السابق ، ص٥٣.

٧٦- دود مره تعني في لهجة الوداويين أسد مره والبعض يقول إن كلمة دود محرفة من كلمة داوود .

٧٧- سعيد الحنديري ، المرجع السابق ،ص٥٣-٥٤ .

٧٨- محمد عيسى ، صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا ، (الكويت :منشورات جامعة الكويت ، ١٩٨٠) ص٧.

٧٩- عبد الرحمن عمر الماحي ، تشاد من الاستعمار إلى الاستقلال ١٨٩٤-١٩٦٠ ، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٠) ،ص ١٤٣ .

٨٠- علي دينار

٨١- عبد الرحمن عمر الماحي ، المرجع السابق ، ص ١٤٣-١٤٥ .

٨٢- محمد آدم دوتوم ، المرجع السابق ، ص٤٣؛ سعيد الحنديري ، المرجع السابق، ص٥٥.

٨٣- محمد آدم دوتوم ، المرجع السابق ، ص٤٣.

٨٤-محمد الطيب الاشهب ، برقة العربية أمس واليوم ،(القاهرة : مطبعة الهواري ، ١٩٤٧) ص٢٤٥-٢٤٦ .

٨٥- عبد الرحمن عمرالماحي ، المرجع السابق ، ص ٣٣.

٨٦- سعيد الحنديري ، المرجع السابق ، ص ٥٨.

٨٧-الموسوعة الحرة مادة آمود آغ مختار www.ar.wikipedia.org

٨٨-مقالة بعنوان" الشيخ عبد الله فضيل طوير الزوي" منشورة على موقع biladunablogspot.com

٨٩-موقع مجلة المساء الالكترونية www.el-massa.com

٩٠-مقالة بعنوان" الشيخ عبد الله فضيل طوير الزوي" منشورة على موقع biladunablogspot.com

٩١-المصدر نفسه.

٩٢-المصدر نفسه.

٩٣-المصدر نفسه.

٩٤-المصدر نفسه.

٩٥-الموسوعة الحرة www.ar.wikipedia.org

٩٦-نقولا زيادة ، برقة الدولة العربية الثامنة ، ص٦١.

٩٧- انظر : صفحة الكفرة زمان على الفيس بوك www.facebook.com، مقالة بعنوان "المجاهد صالح بوكريم" منشورة بتاريخ ١ايلول٢٠١٥.

٩٨-مقال بعنوان "الكفرة" على موقع المعرفة www.marefa.org

The Sanossi - French War in the Sahara 1837-1913

Dr.Prof. Dhahir Mohammad Segar Al-Hasnawi
University of Baghdad/College of Education/ Humanities Ibn Rushd

ABSTRACT

Why did I choose this subject to search it, while there are many studies have been put in a jihad Sanossi in Libya? Yes, that's true, but not much written about Alsanossin Jihad in Algeria or in South Desert of Africa, such as Mali and Niger, Chad and parts of the French resistance to the invasion, and therefore our chosen theme for this search. The Sanossi strategy the first to stir the Algerian tribes and mobilized against the French occupation introduced support for the revolution of Sheikh Mohammed bin Abdullah and Sheikh Bo -Eamama revolution, and when he found that the discrepancy between the military balance of power between the rebel tribes and the forces of the French occupation has made the war between the two parties usually ends in favor occupier, and therefore resorted to change its strategy to transfer the confrontation with the occupier of the areas north of the desert to the areas to the south to prolong supplying lines, and the style of war changed from offense to hard defense through the establishment of angles Sanossi and published on the progress of the occupation forces in sub-Saharan lines,Beer Alaly angle have been recorded in Chad's first line of defense of the movement Sanossi and proved a remarkable capacity to withstand and respond to the creeping colonization of French West and Central Africa for two continuous years of war.